الروايات التمثيلية

برليوز

رواية تمثيلية جديدة ذات اربعة فصول وتسعة عشر منظرا

للكاتب الشهير شارل ميريه

مثلت لاول مرة بمسرح بورت سان مرتان في ٢٢ يناير سنة ١٩٢٧

بزغ (الرومانتيسم) فى أفق فرنسا في أوائل القرن التاسع عشر على يد ثلاثة من كبار الزعماء فتملك فكتور هوجو دولة الشعر وهكتور برليوز دولة الموسيقى وأوجين دولاكروا دولة التصوير وقد جعل التاريخ برليوز مساوياً تقريباً لفكتور هوجو فى الشهرة وما زال ليومنا هذا صاحب التاج والصولجان للموسيقى الفرنسية، ولقد عبر عنه بعض النقاد بانه (الرومانتيسم) المجسم وصوره آخر بانه (روسو) المستيئس الذى يقوده الهام عنيف صوب المدركات الموسيقية . وكان عنده الخيال أقوى من روح النقد وحماسة الخيال الشعري أجود من السيادة الفنية

ترى فى برليوز أن الفن والرجل ليسا الا وحدة لا تتجزأ ، لا تختلف ولا تتنافر اذ كانت حياته النفسية في اشتعال وتوهج وخياله معذباً وحساسيته مرهفة ، وكانت له مزية خاصة اذ يشعر ويتألم في الموسيقي ، له ذوق يميل دائماً للعظمة وفؤاد عميق قلق مضطرب يعرف منتهى الحنان وأقصى الشقاء ولقد ذاقت نفسه الامرين بصبر جميل وشمم عظيم

ومن مميزات برليوز أنه أنشأ فن توزيع الموسيقى على الآلات ونظم له قواعد وأصولا وقد وضع فيه كتاباً عظيماً سماه « كتاب الفن العصري لتوزيع الموسيقى على الآلات »

وقد ذاعت شهرة برليوز فى النقد و كان من أقدر كتاب عصره وما فتئت مؤلفاته في النقد والتحليل تشهد له بالفضل الخالد . وكان يحرر في عدة جرائد منها « جازيت موزيكال » و « جورنال دى ديبا » وغيرهما وكان ظريف الاسلوب خفيف الروح ، وتقع مؤلفاته فى عشرة مجلدات تقريباً منها رسائله ومذكراته و « خلال الغناء » و « الموسيقى والموسيقيون » و « ليالي الاوركستر » و « سخفاء الموسيقى » وغيرها

كان لبرليوز كثير من الاصدقاء وأغلبهم من نوابغ عصره مثل فكتورهوجو والكونت الفريد دو فيني ولينزت وشوبان وباجانينى وايميل وانتوني ديشان ولوجوفيه وبريزو وأوجين سو وغيرهم . وكان له اعداء يمقتونه مثل كيروبينى وكان مديراً لكونسرفاتوار باريس وكان يتصنع له صداقة ملؤها اللؤم والخسة وفيتيس الذي كان وقتئذ مدرساً بالكونسرفاتوار ثم عين في سنة ١٨٣٢ مديراً للكونسرفاتوار ببروكسيل ورئيساً لكنيسة ملك بلجيكا لم يكن أقل عداء له من كيروبينى

لا ينكر أحد ان فتيس كان عالما نحريراً في الموسيقى ولكنه لم يفلح فى التلحين رغما من كثرة مؤلفاته من أوبيرات وقطع متنوعة وقد قضى على جميع مؤلفاته في وقتها . ولو أن هذا الرجل كان بلجيكيا لكنه تلقي دروسه الموسيقية في كونسرفاتوار باريس وحاول ان ينال جائزة روما الاولى فلم يفلح اذ دخل فى المسابقة سنة ١٨٠٦ فأخذ الجائزة الثانية من الدرجة الثانية وفى سنة ١٩٠٧ أعاد الكرة فلم يفلح أيضا وأخذ نفس الجائزة أي الثانية من الدرجة الثانية

أما برليوز فانه أخذ سنة ١٨٢٨ الجائزة الثانية من الدرجة الاولى ولكنه دخل في مسابقة سنة ١٨٣٠ فنال جائزة روما الاولى التي تعطي الحق لحاملها في أخذ مرتب مدى أربعة أعوام كما انه يعطي مصاريف السفر الى روما ذهابا وايابا . أكل الحسد صدر فيتيس اذ رأى برليوز سائرا في سبيل الرقي والشهرة بخطوات واسعات فأخذ يحمل عليه حملات عنيفة ملؤها الحقد والجبن حتى انه انتقد السانفوني

«فانتاستيك» في جريدة الطان بعنوان يدل على سخافته وهو: «ليس برليوز موسيقي»

ولكن هذا الهراء قوبل بالسخرية من أغلب القراء بعد ما سحرتهم القطعة بنغماتها الشجية وتعبيرها البليغ

ومن المدهش انه حضر الحفلة الاولى التي وقعت فيها السانفوني فافتتن وطفق يصفق بكل قوته حتى انساه الشجو حسدا وضغنا طالما نهشاه في فؤاده

والذي يثبت لنا ذلك خطاب برليوز لوالده وقد أرسله اليه في ٦ ديسمبر سنة ١٨٣٠ أي في اليوم التالي للحفلة التى وقعت فيها السانفوني اذ قال في عرض خطابه:

« ان بيكسيس وسبونتيني وميربير وفيتيس كانوا يصفقون بكل عنف كالهائجين وصاح سبونتيني عندما سمع « الذهاب الى العذاب » وهي من ضمن السانفونى المذكورة: «لا يستطيع ان يعمل أحد مثل هذه القطعة الا اذا كان في منتهى القدرة فان هذا شيء خارق للعادة » ثم عانقني بيكسيس بعد الانتهاء هو وخمسون غيره، ولقد اكرهني ليزت الشهير على تناول الغداء معه ولم يترك تعبيراً للثناء والاطراء الا غمرني به

نذكر على سبيل التفكهة حكما من احكام فيتيس يدل على منتهي السخافة والغباوة اذ قال في كتابه «تراجم الموسيقيين» عن جان سباستيان باخ انه اعظم الموسيقيين الالمان على الاطلاق ثم قال في موضع آخر حينما تكلم عن مميزاته

« له ارموني جريئة لكنها ليست دائما صحيحة » فكيف به يرفعه الى اعلى عليين ثم يخفضه الى اسفل سافلين وكيف يكون اعظم موسيقي الالمان ويلحن فى الارموني!

الحديث ذو شجون ولو استرسلنا في سخافات فيتيس لخرجنا عن الموضوع ولكن سكوتنا امام هذه المسألة الدقيقة يترك القارىء فى شيء من الشك والريب فاتماماً للفائدة نقول كلمة مختصرة تصور لنا حقيقة باخ وتحلل لنا نفسيته

مضى على باخ اكثر من قرنين تطورت فيهما الموسيقى والاذواق والنقد

فبذلك تغيرت أكثر الاحكام القديمة وظهر خطؤها جلياً

لا يختلف اثنان في ان باخ يعد أعظم علماء الموسيقى فى المانيا بل فى جميع أقطار العالم وكان في عصره يقدرون الموسيقيين بدرجة تعمقهم فى العلم وأصوله وقواعده ، ولكن أصبحت هذه المزية لا قيمة لها الآن في عصرنا الحاضر

يتطلب عصرنا الحاضر ان يكون الموسيقى شاعراً مبدعا بمعنى الكلمة يعبر عن عواطفه ومشاعره بأصوات ويصف ويصور ما حوله من جمال الطبيعة تصويراً صادقاً ويكفيه من القواعد ما يعصمه من الخطأ في التلحين

عاش باخ طول حياته موظفا عند بعض امراء الالمان وكان همه ان يكون قدوة حسنة للموظفين وان يحافظ على وظيفته بالمواظبة وارضاء رؤسائه وكان يلحن قطعاً من موسيقي الغرف أو القطع الدينية ، ولم تحدثه نفسه ان يكتب شيئاً للجمهور أو يسافر وينتقل كغيره من الموسيقيين لتسعده الاسفار بشيء من النفحات الشعرية ولم يتجشم حتى الذهاب الى غابات المانيا البديعة القريبة منه ليرى فيها آيات الجمال من أشجار باسقة وخمائل ملتفة وطيور مغردة وايائل راتعة

لم يحب قط طول حياته ولم ينكب بفادحة وكان ضخماً قوي البنية رزق عشرين ولداً وبنتا منهم عشرة من زوجه الاولى وعشرة من الثانية ولم يعرف شيئاً من الآلام ومتاعب النفس ولم يعضه الفقر بنابه ، ينام ملء جفنيه على جنب واحد . وقد أجمع الثقات من النقاد العصريين على ان باخ لم يكن مفكراً فى موسيقاه قبل كل شيء كمن خلف من بعده من كبار الموسيقيين مثل بيتهوفن وفاجنر وبرليوز لم يعبر فى موسيقاه عن مسراته وهمومه والامة في حياته الخاصة ولذلك كان الرجل لا يمتاز عن غيره اذا أخرجنا منه الفن حتى شبهه أحد النقاد الظرفاء بكاهن القرية

لنرجع الى شاتنا كما يقول الفرنسيون ونعود الى برليوز ونذكر شيئاً من مؤلفاته وعدتها ٢٨ (أوبوس) مؤلف من فاتحات وسانفوني وقطع دينية وأناشيد واوبيرات غيرها ونكتفي بذكر صفوة مؤلفاته الخالدة مثل «روميو وجوليت» وهي سانفوني دراماتيك كبيرة وبها (كور) و (سولو) للغناء و (برولوج) بشكل

(كور) وقد اثنى عليها (فاجنر) ثناء عظيما وانتقد منها بعض مواضع قال انها ليست في مستوى القطعة . وقال عنها كاميل سان صانس الشهيرة « انها أرقى ما كتبه برليوز ولم يترك تعبيرا فى الاطراء الا ذكره »

وهي فى الحقيقة معجزة فنيـة تلتهب بالعواطف والنفحات الشعرية وابلغ التعبيرات الصادقة الصادرة من أعماق النفس وهذه الموهبة لم يبلغ اعظم شأو فيها غير بيتهوفن وبرليوز وان فاجنر نفسه لم يلحق غبار برليوز من هذه الوجهة ،ولا ننكر ان فاجنر صاحب مذهب عظيم ، وانه رقى التمثيل الغنائي ونهض بفن الاوركستراسيون وعمل انقلابا عظيماً في الموسيقى

كلنا نعرف باجانيني وهو عطارد الكمنجة وملحن قدير لم يأت قبله ولا بعده من استطاع تقليده ومن قال عنه ليزت : «من المستحيل ان يخلف باجانيني أحـد اذ كل من حاول ذلك . ولو أوتي جميع الوسـائل المؤهلة فانه يفتضح أمره ويظهر بمظهر المقلد الكاذب » وكان باجانيني هذا حاضرا في احدى حفـلات برليوز الموسيقية وبعد الانتهاء ركع امام برليوز وقال له « انك اعظم من بيتهوفن » ثم اهداه بمبلغ ٢٥٠٠٠ فرنك

« وطفولة المسيح » وهي من أعظم مؤلفاته الدينية « وخلود فوست في العذاب » وقد مثلت كثيراً بالاوبرا المصرية و « أهل طرواده » ولم تمثل بمصر مع انها من المعجزات و « السانفوني فانتاستيك » وهي من أروع ما أخرجته الموسيقى الفرنسية وهو الذى هذب نشيد المرسليز والنشيد المجري ووضع لهما الاوركستراسيون الحاضر

وقد عين مديرا لمكتبة الكونسرفاتوار وانتخب عضوا في المجمع العلمي الموسيقى ومنح وسام اللجيون دونور من درجة اوفيسيه ونال عدة اوسمة من الممالك الكبيرة وكان ميلاده في سنة ١٨٠٣ ووفاته سنة ١٨٦٩ ولنكتف بهذه الكلمة والرواية فيها الكفاية لتاريخ حياة برليوز

الرواية

لا مراء فى ان شارل ميريه مؤلف « اللهب » و « الدوار » و «الاميرجان» و « الاغواء » و « سرير العرس » يعد من أقدر كتاب المسارح الفرنسيين وهو يعرف جيداً كيف تركب الرواية التمثيلية ويعرف كيف ينفذ الى قلوب الجمهور ويهيمن عليهم وقد وهب نفحات نادرة في فن المسرح ومناظره اللائقة به

ابتدأ روايته فى عام ١٨٢٧ و كان برليوز في ذاك الوقت طالبا في الكونسرفاتوار وعمره اربع وعشرون سنة واختتمها في سنة ١٨٦٩ بموت برليوز فتكون المدة التى تدور فيها الرواية اثنين واربعين سنة وانها لقدرة نادرة ان يسرد لك في بضع ساعات حياة نصف قرن تقريبا تشعبت فيه الحوادث وتطورت فيه الاحوال وتغير فيه الزمان واظهر لك كل طور في جوه الطبيعي دون أن تشعر بتفكك في اجزاء الرواية أو تناقض تشمئز منه . ولقد وضح لنا حياة برليوز وكفاحه مع البؤس ونضاله مع معاصريه الذين ما فتئوا يتحدونه في كل فرصة حسدا وبغيا وهرولته الدائمة حول خيال الحب ومن المناظر التي تلفت النظر وتستهوي النفوس، منظر القصر الملكي (اللوفر) سنة ١٨٣٠ والكونسرفاتوار سنة ١٨٣٥ وقهوة كاردينال وقد اظهرت تلك المناظر نوابغ الكتاب والروائيين والموسيقيين مثل بلزاك واسكندر دوماس وتيوفيل جوتييه والفونس كار وجانان وفاجنر وليزت وادولف ادان

ومن ظرفه وسلامة ذوقه ان ربط العصر الماضى بالحاضر اذ نشاهد برليوز وهو على سرير الموت محاطاً بسان صانس وربير وقد مات الاول منذ بضع سنين والثاني سنة ١٩٠٩ وكان عضواً في المجمع العلمى الموسيقى مع سان صانس

ومما زاد في طلاوة الرواية ان اوركستر بادولو الشهير وقع بين فصول الرواية نخبة عظيمة من مؤلفات برليوز حتى تحمس الجمهور من السرور والاعجاب وكانت الحفلة غاية فى البهجة والرواء

الفصل الاول

نشاهد حينما يرفع الستار في الفصل الاول غرفة برليوز سنة ١٨٢٧ بالمنزل رقم ٩٦ بشارع ريشليو وكانت حقيرة بها بعض أثاث قديم وسرير وبيانو ومائدة مكدسة باوراق الموسيقى وبجانبها مصباح وفي ركن آخر (كومود) وعليه قيثارة ويشاهد أمام المدفأ كانون وبعض آنية للطبخ . وكل مافي الغرفة غير مرتب ولا منظم كعادة أغلب الطلاب وكان الوقت بعد الظهيرة . وقبل فتح الستار تعزف الموسيقي جزأ من القطعة الكنائسية المسماة (سان روك)

وكان يقطن مع برليوز في غرفة ثانية في نفس المسكن الطالب شاربونيل وكان يدرس الصيدلة وهو صديق برليوز ومن البلد التي ولد فيها . وقد حضر دورتيج المحرر في جريدة « لا كوتيديين » وصديق برليوز لزيارته فلم يجده فانتظر قليلا فحضر شاربونيل قبل برليوز وجلس يحادث ضيف صديقه واخبره في سياق الحديث ان الدكتور برليوز أراد أن يكون ابنه طبيبا وأرسله الى مدرسة الطب ولكنه لم يستطع ان يستمر في مادة لا يميل اليها ، وعكف على دراسة الموسيقى ، ودخل الكونسرفاتوار . ولما تقدم لجائزة روما لاول مرة رفضت اللجنة أن تمنحها له لانهم كانوا يعبدون القديم ويكرهون كل حديث فلذلك حرمه أبوه من المرتب الذي كان يعيش به فاضطر أن يعطي دروساً موسيقية بفرنك واحد للدرس ليستطيع أن يعيش وما كان هذا البؤس ليثني عزيمته أو يفل من شجاعته فاستمر بصبره المعهود ونضاله حتى تغلب على جميع الصعاب فقال له دورتيج :

— انني أريد أن اكتب عنه مقالة في «الكوتيديين» وقد أخبرني رفيقه في الكونسرفاتوار المسيو مونفور بانه يكتب اوبيرا اسمها « القضاة الاحرار » فدهش من قوله وقال له ان برليوز قد اعتراه في هذه الايام قلق واضطراب كبير كان يريد أن ينفجر وقد حصل له هذا الانقلاب ليلة أن شاهد الممثلة الارلندية التي تمثل مع الجوق الانكليزي بمسرح الاوديون

دورتيج — هي هاريت سمتسون ويقال انها خليلته

شاربونيل — خليلته ؟ ... انها لا تعرفه ولم تخاطبه قط ، وغاية الامر انه رآها

ومن تلك اللحظة وهو في شيء من الذهول والارتباك ، وطفق يجوب المدينة كالمجنون ثم سكن هذه الدار لانها مواجهة للمنزل الذي تسكنه هذه الممثلة ونافذته مطلة على نافذتها وقد مر عليه ساعات وهو مترقب فى النافذة ويرسل اليها رسائل خالية من المعنى واني أخشى ان يصيبه مس

دورتيج — اواه

شاربونيل — انه لا يشتغل ابداً ! . . . وقد تحدثت عن القضاة الاحرار؟.. وا اسفاه ! . . . اتعرف كيف يقضي وقته في غيبتي ؟ ... انه يقطع وقته في الغناء وقد سمعته عدة مرات قبل الدخول الى الغرفة يغنى قطعاً من اغاني الفودفيل السخيفة ! . فجاء برليوز المعجب بجلوك وفيبر ! .. ثم فتش في أوراقه وأخرج منها عدة قطع اراها لدورتيج

دورتيج — ولكنها قطع من الاناشيد (كور)

شاربونيل — صه فقد اقبل

دخل برليوز وجلس على كرسي مسنداً رأسه الى يده دون ان يشاهد شاربونيل ودورتيج ، ثم لمح امامه موسيقى القطع السابقة وطفق يغني ويعمل اشارات التمثيل ، ثم اكفهر وجهه وقال ان هذا سيجعلك غبياً سخيفاً ! . . . وفي هذا الوقت كان شاربونيل ودورتيج صامتين منصتين لغنائه واشاراته ولما انتهى اقبلا على اطراف اصابع ارجلهما وقدم دورتيج قائلا: انه محرر فى «الكوتديين» فصافحه برليوز

برليوز — هل سمعت غنائى ؟.. أما قلت في نفسك انه معتوه

ثم وقف برليوز على كرسي واطل من النافذة ليرى الطريق . . . وفى هذه الاثناء قال شاربونيل

— منذ ماشاهد هملت أصبح . . .

برليوز — (وهو على الكرسى) أتحسبني أيها الفتى مجنونا ؟. من هو المجنون؟. هو رجل تختلف طريقة نظره واحساسه عن سائر الناس. ثم نزل عن الكرسى وامسك بيدي دورتيج قائلا :

— لست مجنونا وانما أنا تعس بائس !.. فتأثر دورتيج ثم قال :
حاشا يامسيو برليوز

برليوز— لقد نسى شاربونيل أن يقدمني اليك ولكنه يجهل ذلك . انني هكتور برليوز منشد « كوريست »في مسرح النوفوتيه.فدهش الرجلان عند سماعه

برليوز — ولكن ما العمل ويلزمني ان أعيش وقد عملت مسابقةفي النوفوتيه لكوريست و كان يزاحمني نساج وحداد . وكان المسرح محتاجا لمنشد له صوت « باس» وصوتي باريتون ولكني فزت عليهما ولي خمسون فرنكا في الشهر . ثم أخذ يقهقه وغنى قطعة من الفودفيل وكان شاربونيل ودورتيج يبتسمان في أول الامر ثم اغرقا في الضحك فلما رآهما برليوز على تلك الحال كف فجأة عن الغناء ثم قال :

— هل رأيتما هاربيت سمتسون فى همات ؟ هل رأيتماهما وفي (اوفيلي) ؟.. لقد صعقني شكسبير حينما سقط علي فجأة هو وهاربيت !.. وفي ذاك المساء عرفت العظمة الحقيقية والجمال الحق والحقيقة الروائية وفي نفس هذا المساء عرفت الحب ! انها لم ترني ولم اخاطبها ولكني أحبها ! اذكر هذا يامسيو دورتيج وانشره وقل انها ستكون لى زوجا !

شاربونيل— انت احمق

برليوز ـ ستكون عقيلتى وأنا موقن بذلك وأشعر به !..

ثم دخل عليهم مونفوروحيا دورتيج ثم دار الحديث بينهم على غرام برليوز وبعد لحظة غني برليوز وهو بجانب النافذة قطعته المسماة « مرثية » واصطحبه على البيانو مونفور ثم سكت فجأة اذ لمح من النافذة هاربيت سمتسون

برليوز — هي هي ! ... وهذه العربة التي وقفت لاجلها (ثم هرول الى عباءته ولبسها وبحث عن قبعته فلم يجدها)

شاربونيل — هل نويت الخروج

برليوز — نعم

شاربونيل — والغداء

برليوز — لا أشعر بجوع

مونفور وشاربونيل — هكتور !..

« وأرادا أن يسدا الطريق أمامه »

برليوز — « وقد كاد يطرحهما أرضا » مكانكما !

دورتيج — يامسيو برليوز ! ...

برليوز — معذرة ... انني ... هي ...

استودعكما الله « ثم خرج حاسر الرأس كالمعتوه ووقف الرجال الثلاثة هنيهة يشيعونه بنظرهم وهم باهتون .

شاربونيل لدورتيج وهذا كما ترى ! . . .

تقابل في يوم آخر دورتيج وبرليوز ومونفور في قهوة كاردينال ودار بينهما الحديث :

مونفور — روسيني . . .

برليوز — (وقد قاطعه) فيجاروبوني ! . . أحبته ! . . . يتهكم على أوبيرا حلاق اشبيلية

مونفور — يزعم روسيني أن موسيقي فيبر تحدث له مغصا

برليوز — (يضرب المائدة بقبضة يده) آه ! . اني أريد أن أقعده على خازوق من حديد مصهور !. ان الروسينيين لبغضهم لجلوك وسبونتيني قد تمادوا في طغيانهم حتى قالوا ان الموسيقى لا قصد منها غير تشنيف الآذان وهي عاجزة عن التعبير عن العواطف والآلام ! .. (فظهرت على مونفور ودورتيج بوادر الغيظ والاشمئزاز) يا لهم من مجرمين (يتكلم بصوت خافت بلهجة الآمر) يجب أن ينسف المسرح الايطالي بمن فيه من الروسينيين في احدى ليالي التمثيل !

مونفور لدورتيج — وماذا حصل للمقالة التي تريد نشرها في (الكوتيديين)؟

دورتيج — ان ميشو يخشى عاقبة نشرها

مونفور لبرليوز ـ ان هذه المقالة تصيرهم لك أعداء

برليوز ـ ليس لي الا اعداء ! .. وجميع أعضاء المجمع العلمي الموسيقي مثل كيروبيني وباير وبوالديو وكاتل أغبياء اذ علنوا ان (الكانتات) التى كتبتها أخيراً لا يمكن توقيعها وقد قال لي يوماً بروتون : يا صديقي لا يوجد شيء جديد في الموسيقى »

مونفور ـ انه مصاب بالنقرس

دورتيج ـ ومن عباد الاوهام العتيقة

برليوز ـ اتعرف ماذا أجاب كروتزر حينما أوصاه على لوسويور « ليس عندنا وقت لفحص التلحين الجديد! وماذا يصير ما آلنا اذا ساعدنا هؤلاء الشبان!»

ثم قام برليوز قائلا كم الساعة ؟ .

دورتيج ـ الساعة الثانية

برليوز ـ سأذهب الى مسرح الاوبيرا كوميك لامرن الموسيقيين على تحضير فاتحتي الموسيقية « فافرلي » وستكون الحفلة في اليوم الخامس من ديسمبر لمساعدة هوييه وستشترك في هذه الحفلة هاريت سمتسون وتمثل فصلين من روميو وجولييت لآخر مرة بباريس »

دورتيج ـ هلا نلت منها موعداً أو استقبلتك ؟

برليوز ـ كلا ! .. انى اكتب اليها دون ان ترد علي .. وقد حظرت على خادمها أن تستلم شيئاً من خطاباتي وعلى كل حال سأراها في الحفلة ثم انصرف الجميع ووعد دورتيج ان يحضر الحفلة

ننتقل بالقارىء الى مسرح الاوبرا كوميك لنشاهد تحضير الحفلة التي سبق الكلام عليها فنري الممثلين الانكليز مع هاريت سمتسون يتمرنون على تحضير الحفلة وترى برليوز مع مونفور ودورتيج على مقربة منهم ، ولما تموت جولييت ويرفعها روميو بين ذراعيه يصيح برليوز: ماتت ! . . هل هي التي ماتت ! . . وكان يريد ان يرتمي عليها فمنعه مونفور ودورتيج . ثم حصل هرج بين الممثلين

واومأ «ابوت» الذي كان يمثل دور روميو الى برليوز وقال : انه مجنون.. ثم قال مونفور لبرليوز ماذا دهاك ! قال له دورتيج ألم تشهد تمثيل روميو وجولييت ؟ فأجابه برليوز حينما رأيتها بثيابها العادية ظننت انه أغمى عليها وماتت

وبعد لحظة ذهب نحو هاربيت وقال لها :

ـ مدموازيل هاربيت سمتسون ! .. انني .. فتقهقرت مذعورة وقالت له : هل توجه الى الخطاب من هذا الشاب ؟ .

برليوز ـ أنا هكتور برليوز ! . وقد كتبت اليك مراراً ! . وانك تعرفيني

هاربيت — (وهي متقهقرة) لا لا ! . . انني لا أريد أن أعرفك ودعني بسلام !

برليوز — أنبئيني أين تقابليني وتسمعين حديثي

هاربيت ـ كلا كلا ! .. أغرب ايها القبيح !

برليوز ـ حذار أيتها الآنسة :

هاربيت ـ أغيثوني ! أغيثوني !

ثم اقبل منظم المسرح وأبوت الممثل وابعدا برليوز بعنف وقال الاخير مشيرا الى برليوز اطردوه

ثم أخذ يتهكم منه صاحباه بعد هذا الخذلان وبعد قليل اتجه صوب الموسيقيين وابتدأوا يوقعون فاتحته « فافرلى » فابدى لهم بعض ملاحظات

ثم اقبل اليه المستر ترفر وقال له انني متعهد تمثيل مس هاربيت سمتسون وهي تقول انها ستسافر مع والدتها الى استردام وترجو منك ان تتركها بسلام اذا كنت حقيقة تحبها فاضطرب من هذا الخبر وشحب لونه. فاقبل اليه صاحباه وقال له مونفور: لست في حالتك العادية ويجب عليك بعد انتهاء مسابقة المجمع الملكي أن تسافر وتذهب الى بلدك لتغيير الهواء والاستراحة

ملاحظه — لقد صور الكاتب المقابلة الاولى لبرليوز بهذا الشكل السمج المرذول حتى جعله أضحوكة بين الجميع مع أن الحقيقة التاريخية تخالف ذلك ولو

كان المؤلف قرأ رسائل برليوز لعثر على خطاب يصور لنا المقابلة الاولى بكل احتشام وأدب وظرف وكان موقفهما مما يضرب به الامثال فى التأثير والعطف وهذه الرسالة كانت موجهة الى المسيو . ا . دوبو في ٥ يناير سنة ١٨٣٣ قال في عرض خطابه .

« حضرت هاريت سمتسون الى حفلتي جاهلة انني سأقود الموسيقى وقد سمعت الفاتحة التى هي موضوعها وسببها الاصلى فبكت وقد شاهدت بعينيها نجاحي الباهر ونفذ هذا الى فؤادها مباشرة ودلتني على ذلك حماستها بعد الحفلة وقد قدمونى اليها فاصغت الى ودمعها ينحدر من مآقيها وقد سردت عليها مثل عطيل جميع التقلبات التي انتابتني من يوم ماشغفت فسألتنى الصفح عنها لما سببته لى من آلام ومتاعب كانت تجهلها حق الجهل وأخيراً في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٠ في حضرة أختها سمعت منها هاته الكلمات :

« انني أحبك يابرليوز » ومن هذا الوقت انحصرت جهودى فى اطفاء بركان رأسى لاني خيل الى أني فقدت صوابي . انها تحبنى ولها قلب كقلب جولييت أو هي أوفيلى ، واذ لم أستطع مشاهدتها كنت أكتب لها كل يوم ثلاث رسائل وكانت تكتب الي بالانجيزية وأرد عليها بالفرنسية . وهذا مايدل على وجود العدل في السماء مع انى كنت لاأعتقد بوجوده . واني مدين في ذلك لفنى وفكري وأما سانفونيتي العزيزة فاني أريد أن أضعها فوق مذبح ثم أحرق لها العطور .

وهذه السانفوني هي « حوادث حياة فنى » وهي تشمل « الفانتاستيك » وملحقها « العودة الى الحياة » مع تنقيح واضافات من (كور) و (سولى) أي أناشيد وقطع يغنيها فرد أو يوقعها فرد على آلة واحدة

بعد أن تمت المسابقة الاولى وأخذ الجائزة الثانية من الدرجة الاولى ذهب الى ميلان (فرنسا) في سبتمبر سنة ١٨٢٨ وهى بلد عائلته وقد قابل هناك أخته ومدموازيل ايستيل صديقة طفولته وقد أخبرته أخته (نانسى) أن أباه سرجد أحيانا انتشر خبر نيله الجائزة الثانية وقد عزم على الاستمرار على اعطائه مرتبه ، ثم أقبلت

ايستيل وجلست هنيهة مع برليوز وصارا يتجاذبان ذكريات الطفولة الحلوة وأخبرته في آخر الامر أنها خطبت منذ عامين فكان لهذا الخبر وقع اليم في نفسه

ننتقل بالقارىء الى قصر اللوفر في سنة ١٨٣٠ والتاسع والعشرين من يوليه وكانت الساعة الخامسة بعد الظهر في أبان الثورة اذ هجم الثوار على قصر اللوفر بعد ما أصلوه ناراً حامية وكانت باريس تموج بالجوع المحتشدة من فلاحين وجنود وعمال وطلبة والجميع ينشدون الاناشيد الحماسية والثورية وقد اصطدم وقت الزحام بالمصادفة دورتيج مع برليوز فسأله عما فعل في المسابقة لجائزة روما فقال له لقد نجحت وأتممت «الكانتات» «حريق سردينال» وحينما كنت في المجمع العالي أثناء المسابقة رأيت الحرب منتشبة في اللوفر وقد نجوت بنفسي باعجوبة فهناه دورتيج وأخبره بان اللوفر قد وقع في أيدي الثوار

وبينما هما سائران اذ سمع برليوز جمعا يغنى نشيد «مور» من تأليف برليوز فاسكت المنشدين وقال لهم ليست السرعة بهذا الشكل فسكتوا ونظر رئيس المحتشدين الى برليوز شزرا وقال له

— وماذا يعنيك ؟

برليوز — أنني أقول ان هذه السرعة ليست بسرعة القطعة

الرئيس — هل أنت موسيقى ؟

لدورتيج — (هو يضحك) من ؟ هو ؟ أنه ... فاسكته برليوز

الحرس الوطني — « موجها خطابه الى المنشدين ومشيراً الى «برليوز» اتبعوا ما يقوله لكم هذا الشاب

برليوز — « يغنى أولا القطعة ثم يضرب الوزن » أنشدوا معي أيها الرفاق !

ثم قال أحد الجنود وهو يحمل العلم الفرنسي أنشدوا المرسيز

الجميع — هيا أنشدوا المرسيز

الجندى — مشيراً الى (برليوز) هيا أيها الصغير واصعد على الكرسي واضرب الوزن

برليوز — (يصعد على الكرسى) المرسيز ثم يقول لدورتيج (سترى التهذيب الذى سأدخله على المرسيز (ثم قال للجمهور) انشدوا معي أيها الوطنيون ولينشد كل من له صوت وقلب ودم يجري في شرايينه ثم يغني

هلموا ابناء الوطن ! .

الفصل الثاني

ننتقل الى نزل (كونجريه) حيث تقيم هاريت في غرفة مؤثثة باثاث ليس بالفاخر في اغسطس سنة ١٨٣٣ وكانت مستلقاة على كرسى طويل (شيزلونج) وقد أصيبت رجلها بكسر وكانت معها أمها وأختها تتمشيان في الغرفة وتتحادثان معها بلهجة الآمر الحانق وتتوعدان برليوز لو حضر اليها فكانت الام تقول انها مادامت على قيد الحياة فلا يستطيع برليوز ان يضع قدميه فى غرفتهن . وقالت الاخت لو كنت مفتولة الذراعين لقذفت به من النافذة فاجابتهما ان منعتماه يأتي ولا يهاب شيئاً فلما احتدم الجدال دار الحوار بينهما.

والدتها — هل تحبينه ؟

هاريت — انكما تضايقاني اكثر منه !..

والدتها — هل سبك أحد طول حياتك ؟..

أختها — ولقد اتهمك فى هذه السافنوني الممقوتة في الحفلة التى شاهدتيها وكنت وقتئذ مضغة فى الافواه ووصفك بهذه الاوصاف ... أوفبلى ، البنت الخليعة ! ... المرأة الساقطة !... وكانت الجموع يرمقونك بانظارهم وهم ضاحكون ! حتى كدت تختنقين من الخجل في ذاك اليوم

أمها — وبعد الحفلة بثمانية أيام تريدين مقابلته وأنت أنت التى كنت تحتقرينه منذ ست سنين . وقصاري القول ماذا يريد منك

هاريت — يريد أن يتزوج مني

أمها — ولكنى أرفض زواجه

أختها — وكذلك أهله يرفضون !

أمها — انه فقير ولا يملك غير مائتي فرنك في الشهر وهي مرتبه عن جائزة روما

هارييت — وانى مدينة باربعة عشر الف فرنك !..

أختها — اتعرفين مع كم من النساء لعب نفس هذا الدور

هارييت — هذا لايهمني

وبينما هن فى جدالهن العنيف اذ حملت اليهن الخادم رسالة وقبل ان تقعد هارييت أخذت أمها الخطاب وقالت هذا خطه وفتحته فقالت لها هارييت انى امنعك عن الاطلاع عليه فلم تلتفت اليها وطفقت تقرأ هذه السطور: «اذا كنت لاتريدين موتى ولو بدافع الرحمة لانى لاأستطيع ان أقول بدافع الحب . . .انبئيني متى اراك . انني اسألك الصفح وأنا راكع بك واني انتظر جوابك كما انتظر الحكم من القاضى » فضحكت امها بتهكم وقالت للخادم من احضر هذا الخطاب ، فقالت شاب اشقر فقالت اختها هو هو ! ثم قالت الام للخادم قولي له ان مس سمتسون لاتستطيع ان تقابلك فاحتجت هارييت على والدتها وصرفت امها الخادم باشارة ثم سمع صوت برليوز صائحا هائجا «هل هي هنا .. سأراها ! .. اذهبي الى الشيطان» ! . ثم فتح الباب ودخل برليوز وهو هائج وقال لامها واختها : «انكما لاتستطيعان ان تمنعاني من مشاهدتها ، اغربا من امامي والا اقتلكما » وهجم عليهما ففرتا مذعورتين ودخل على هارييت وارتمى على قدميها

برليوز — هارييت ! ..يامن هي هواى وآلامي في الحياة ..

هارييت — ان أهواءك لتقودك كالمجنون

برليوز — نعم جننت من الفرح ! .. اقرئي رسالة ابى فانه وافق على زواجنا ياهارييت ! ياعقيلتى !.. (وحينما جلس أختك برجل هارييت دون قصد)

هارييت — آه ياهكتور .. قد آلمت رجلي

برليوز — ماذا !.. أما طرت فرحا من هذا النبأ ؟

هارييت — انك ترعبني مثل المرة الاولى التي رأيتك فيها في حفلة مساعدة هوييه من ست سنين

برليوز — أرعبك ؟ . اذا استطعت أن تفهمي درجة حبي لارتميت بين ذراعي

هارييت ـ ولكن لم تصيح وتعلن ذلك فى كل مكان ؟ . ولقد اصبحنا اضحوكة الشارع .. واصبحنا مضغة الافواه اذ لا يتحدث الناس في جرائدهم ومقاهيهم ومسارحهم الا بحبك الجهنمي ! .

برليوز ـ بل هو المجد !.

هارييت ـ انك تقسم انك ستموت وقد اثرت بذلك سخرية أصدقائك وقد شاهدت أوجين سو ولوجوفيه وجول جانان يضحكون منك فسكن مابك وفكر قليلا ..

برليوز ـ فيم أفكر ؟

هارييت ـ في حالتي السيئة!.. انني مثقلة الديون ومريضة..

برليوز — ان هجرتك السماء والارض فاني سأستمر على حبي وأكون خاضعاً للهوى مثل روميو أمام جولييت

هارييت — (تمد اليه يدها وهي متأثرة) هكتور !..

برليوز — متى نتزوج ؟..

هارييت — امهلني حتى أفكر

برليوز — خبريني عن الميعاد .. ثم قعد ثانية فلمس رجلها)

هارييت — آه ! رجلي !..

برليوز — (ينهض غاضباً) وأنا فؤادي يؤلمني ؟ .. وان هذا الالم العنيف لم ينهش فؤاد أحد بهذه الدرجة !.. وانت التي لاتحبينني

هارييت — لا ياهكتور ولكنني مترددة

برليوز — (وهو هائج) انك مترددة !.. ولكني لاأتردد !.. لقد انتهى الالم ! وانتهت الحياة ! (ثم أخرج من جيبه زجاجة وشرب مافيها فانقضت عليه هارييت وانتزعتها من يده)

هارييت — (وقد كادت تجن) ماذا فعلت ؟ . أي هكتور !... (ثم نظرت

الى الورقة الملصقة بالزجاجة) أفيون ! .. آه يارباه ! .. انك تريد الانتحار ! .. هكتور !..(ثم وقع على الارض مغشياً عليه) أفق!.. انني أحبك..يالك من مجنون انني أحبك !. يجب أن نعيش لمؤلفاتك الخالدة ومجدك العظيم !..

برليوز— (يحرك رأسه) بل لاجلك ياهاريت

هاريت — وا أسفاه ! انك تشترينني بثمن غال !.. وآلام قاسية .. لقد فاتني الوقت !.. واني متعبة جداً

برليوز — هاريت

هاريت — سأعمل كل ماتريده

برليوز — (يعانقها) أنت لي وحدي ! ..

* * *

نتنقل بالقارىء الى ضاحية مونمارتر في سبتمبر سنة ١٨٣٤ وهناك نرى بيت برليوز الصغير وبه حديقة جميلة ونشاهد برليوز مع زوجته هاريت يتنعمان بالحب ويتناجيان في أسرار هواهما وقد رزقا غلاماً اسمه لويس .وقد لبى ليزت ودورتيج دعوة الغداء وأخذوا يتسامرون وقت الطعام بأطيب السمر ولما شاهد صديقاه اشتغال باله بطفله في كل آونة قال ليزت لدورتيج سراً — أصبح النسر أسيراً في حظيرة الدجاج

* * *

وفي ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٣٩ أقام برليوز حفلة كبيرة فى الكونسرفاتوار لتوقيع سانفوني «روميو وجولييت» وقد غص البهو بالامراء وعظماء الرجال

دورتيج — هذا نصر مبين !.. فقد حضر الامير دومال والامير مونبانسييه (وكان يتكلم بصوت منخفض فأقبل الفونس كار وهو محاط بجمع من الناس)

الفونس كار — أتريدون معرفة رأيي في موسيقى برليوز ؟.. ان موسيقى برليوز الخالية من الاغاني ليست بالموسيقى التى أحبها . وموسيقاه هي نتيجة تقدير غير صحيح فانه يريد أن يصور بالموسيقى كما يصور الكلام ! وليس فى ذلك نجاح

انما هو تأخر وتقهقر أحد الموسيقيين ـ ان الفضل في شهرة برليوز راجع للاصدقاء وكما أن برليوز ملحن ونقاد فلذلك نرى جميع أصدقائه من الصحفيين يتملقون اليه

أدولف ادم ـ شهرة مبنية على ادعاء وقح ولا ترتكز على عمل مستحسن

دورتيج ـ أدولف آدم مؤلف أوبيرا «البيت السويسرى»

بلزاك ـ ان هذا لمن أعجب العجب ! انني أبحث عن برليوز . ها هو ! .

(ثم يظهر برليوز على اليمين وأصدقاؤه ملتفون حوله ويسمع التصفيق الحادوالصياح «مرحى مرحى» ثم يعانق بلزاك برليوز)

اسكندر دوماس الكبير ـ لقد أحرزت مجداً كبيراً !.

برليوز ـ أهلا بعزيزى دوماس

دوماس ـ ما أرق وأعظم ماسمعناه ! انك لعظيم مثل شكسبير !

تيوفيل جوتييه ـ أعانقك يا برليوز

برليوز ـ أهلا بعزيزى تيو !.

تيوفيل جوتييه ـ (متجهاً نحو جول جانان) عم صباحاً ياجانان . هل أنت مبتهج مسرور ؟

جول جانان ـ ان رأيي لم يتغير قط فى برليوز انني أحبه وأعجب به أيما اعجاب !

لوجوفيه ـ (موجها القول لبرليوز) انني أنا وجميع أصدقائك متهللون بعدهذا الفوز العظيم ! ولقد عبرت لزوجك اللطيفةعن شعوري العميق نحوك

برليوز ـ انكصديق مخلص . هل رأيت زوجي ؟

لوجوفيه ـ رأيتها هي وطفلها ذا الشعر الاسجدى المماثل لشعر أبيه ...كميبلغ من العمر !

برليوز ـ خمس سنين

مارى ريتشو ـ (وهي فتاة جميلة أسبانية وقد اقتربت من برليوز ووجهت

القول لدورتيج) قدمني من فضلك الى المسيو برليوز

دورتيج ـ أقدم لك مدموازيل مارى ريتشو المغنية الشهيرة

ماري ريتشو ـ آه أيها الاستاذ الكبير... لقد هجت قلوبنا وأثرت في رؤوسنا وان مؤلفك هذا لمتأجج متوهج مؤثر عظيم .. (ثم أخذت يده وقبلتها) انى أقبل هذه اليد التي سطرت هذه الموسيقى الخالدة

برليوز ـ «فينحنى شاكراً» هل تغنين يامدموازيل !

ماري ريتشو ـ انني أتلقى الغناء على المسيو بنديرالى (ثم تقدم والدتها) أقدم لك مدام سوتيرا دوفيلاس والدتي

مدام سوتيرا ـ لقد فتنتنا أيها الاستاذ ...

مارى ريتشو ـ ان والدتي أسبانية ولكن أبي كان فرنسيا وضابطا في الجيش آه ! لو تفضلت أيها الاستاذ بمقابلتى واستماعي ... اني اكون سعيدة اذا كنت بجانبك ... (ثم هاجته بنظراتها)

برليوز ـ « وهو مضطرب » بكل ارتياح أيتها الآنسة . . . تفضلي بمقابلتي في جريدة الديبا أو في مكتبة الكونسر فانوار

ماري وأمها ـ شكراً لك ايها الاستاذ العظيم ! .

مارى ريتشو ـ انني مسرورة جداً . . . اني اقبلك ! « ثم قبلته وخرجت مسرعة مع والدتها »

برليوز ـ «مخاطبا دورتيج» انها جميلة .. وفتانة!

وقد دخلت هاربيت هى وابنها منذ هنيهة من الجهة اليسرى وكانت ممسكة بيد ابنها

دورتيج ـ «يلمحها فينبه برليوز بصوت خافت » زوجك !

هاربيت ـ « وقد شحب لونها واكفر وجهها» من هذه الفتاة

برليوز ـ من؟

هاربيت ـ التي قبلتك

برليوز ـ لا اعرف ... وهل هذا كل ما عندك لتفاتحيني به بعد هذا اليوم العظيم المشهور ؟

هارييت ـ ان المعجبات بك قدعبرن لك عن كل ما يخالج قلوبهن

برليوز ـ « بصوت تعلوه الشفقة » هارييت !...

هارييت ـ اواه ! انني اختنق من الخجل . لقد حضرت كتائب خيلاتك! حتى هذه الفتاة التي اجترأت على تقبيلها امامي ! ...

برليوز ـ لقد شردت عن الموضوع..

هارييت ـ لقد تحرشت بي بعينيها وهي ضاحكة!

برليوز ـ (وقد خاف ان يسمعها احد) ارجو منك ان تكفي !..

هارييت (وقد سحبت ولدها وهي هائجه هيا يالويس فاننا نضايق اباك !. (ثم خرجت مع ابنها)

دورتيج ـ «وقد لمح الماريشال دولوبو ووراءه ضابطان ياوران » الماريشال دولوبو « ثم حصلت حركة كبيرة في المجموع وطفقوا يتهامسون « الماريشال الماريشال »

الماريشال ـ « مادايده لبرليوز » آه يامسيو برليوز انني اهنئك !

برليوز ـ « وهو منحن تعظيما » اشكر لك ياجناب الماريشال !

الماريشال ـ « بحماسة » عظيم جداً ... ان ما احبه على الاخص في مؤلفك هي .. «ثم يفكر هنيهة » هي الطبول .. « ثم يصافح برليوز ويخرج»

دورتيج ـ «وهو باسم » هذا فخم ..

برليوز ـ « وهو يهز رأسه » وأسفاه ! .. «وفي هذه الاثناء يدخل ملاحظ الحفلات ويعطي لبرليوز ورقة فيشكر له وينظر فيها » هل رأيت يادورتيج ، هذا نجاح باهر عظيم ..

أتعرف ماالذي أكسبه من دخل روميو وجولييت اذا أقمت ثلاث حفلات غير هذه ؟ . . الف ومائة فرنك

دورتيج — «وقد رفع ذراعيه» اكتب اذن شيئا من الفن الجدي

برليوز — ان الفنيين لايحق لهم ان يعيشوا

الفصل الثالث

كانت هاريت بعد زواجها تساورها الغيرة على زوجها وتظن به الظنون فكان ذلك مدعاة لاستمرار المشاحنة بينهما وسوء الظن به وطفقت تدمن في الخمور حتى ساءت صحتها وتجهم وجهها وفقدت جمالها بعد ثمانية اعوام من زواجها فاصبحت معاشرتها لاتطاق واضطر برليوز أن يخادن ماري ريتشو خفية ويصطحبها في اسفاره وبلغ من شراسة هاريت انها كانت تذهب الى زوجها في مكتبة الكونسرفاتوار وتضايقه بمشاحنتها الصارخة

وفي ذات يوم ذهبت اليه مارى ريتشو وكانت بالمصادفة هاريت وابنها هناك فاضطرم الشجار بينهما بشكل مريع

ومن كثرة ادمان هاريت على الخمر اصابها شلل واحتقان في الدماغ فكانت تتكلم بصعوبة ثم عانت المرض والآلام اعواما طوالا الى ان ماتت في ٣ مارس سنة ١٨٥٤

وفي شهر يونيه سنة ١٨٥٥ دعا المسيو سانتون العازف على الكمنجة الفرنسى الشهير وكان مقيما بلندرة برليوز وفاجنر فلبيا دعوته وكان بجانب سانتون صحفى يكتب مذكرات أثناء حديثه

سانتون — انه لمن العجب العجاب ان أكون بلندرة وأنا من تولوز وان يكون على مائدتي اكبر موسيقي فرنسا برليوز واكبر موسيقي المانيا فاجنر

الصحفى — الاثنان المتنافسان

سانتون — وسيقود كل منهما اوركسترا . . وبالوقع هذا الخبر اذا نشر فى التيمس . . .

الصحفي — هل يعرف بعضهما بعضا ؟

سانتون — تمام المعرفة

الصحفي — وهل هما عدوان متباغضان ؟

سانتون — ولكنهما يخفيان في قرارة نفسهما اعجاب كل منهما بالآخر ! وسأفاجئهما ببعضهما

الصحفي — وكيف ذلك ؟

سانتون — بكل سهولة ... ولكن ماالعمل مع مدام برليوز . . .

الصحفي — هاريت سمتسون

سانتون — كلا .. فقد ماتت منذ سنة ونصف ولكن برليوز تزوج ثانية من مغنية شهيرة تدعي مارى ريتشو ... وهذه هي زوجه الجديدة ... انها كالصل تمقت فاجنر وتبغض كل ما يصدر من غير برليوز ولم أدعها ولكنها دعت نفسها

الخادم ـ (يدخل ويعلن) المسيو برليوز وزوجه

سانتون ـ هي ! لقد أفسدت حيلتنا ! .

(ثم يوجه كلامه للخادم) اذا حضر المسيو فاجنر فادخله في البهو الصغير (ثم يقول للصحفي) هل تتفضل يا عزيزي بانتظاره هناك وتسليته قليلا ؟ (فيذهب الصحفي) شكراً لك (ثم يشير الى الخادم ليدخلهما)

برليوز ـ عم صباحاً سانتون (ثم يوجه خطابه لزوجه) هل تعرفين المسيو سانتون عازف الكمنجة الشهير ؟ (ثم يخاطب سانتون) اقدم لك مدام برليوز

سانتون ـ (ينحني احتراماً) مدام . . . (ثم يجلس برليوز) هل انت تعب يا أستاذ ؟

برليوز ـ نعم ... ومريض انا وزوجي . انني اشكو من اعصاب امعائي وهي من نوبات القلب ...

سانتون ـ لقد حضرت لك عشاء تولوزيا

ماري ريتشو (وهي قائمة) حذار يا هكتور من الافراط في اكله !

سانتون ـ اتعلمان انني التزمت ان أدعو أيضاً فاجنر ؟

ماري ريتشو ـ وقد نهضت هائجة فاجنر فاجنر ! اننا نبارح البيت

برليوز ـ بلهجة المتجاهل ولم ؟

ماري ريتشو ـ هذا الخبيث الذى يسخر منك في كتابه الاخير وينكرك ...

برليوز ـ انها لرصاصات صغيرة وقد صوبت منها كثيراً الى سيقان الغير لئلا أجد غرابة فيها حينما تصوب اليّ بدوري ...

ماري ريتشو ـ نبتنا برأيك في فاجنر . تكلم بصوت جهوري وعبر عن فكرك

برليوز ـ ان فاجنر فيه شيء جذاب

مارى ريتشو ـ وهل هذا كل شيء

برليوز ـ كلانا عندنا شيء من الخشونة ومن الممكن أن نزول وتعتدل أخلاقنا

وبعد قليل استأذنت مدام برليوز وانصرفت الى الفندق الذى نزلت فيه هي وزوجها ورجت من زوجها ان لا يأكل من الاطعمة التولوزية لئلا تتبعه فلا يستطيع ان يقود الاوركستر في المساء

سانتون ـ ان الخوف يخالج صدري يا استاذي العزيز ! ... قد حضر فاجنر

برليوز — اصحيح ما تقول ؟

سانتون — اتريد ان تراه

برليوز — (وقد قطب حاجبيه) هل انبيء بحضورى؟

سانتون — (وهو يبتسم ابتسام المكر)

نعم عنده علم . .

برليوز — لاشيء يمنعني من مقابلته (فخرج سانتون من الجهة اليمني ونهض برليوز وتقدم بضع خطوات ثم وقف وفكر قليلا ثم نادى فاجنر . .

فدخل فاجنر من الجهة اليمنى فصافحه برليوز

فاجنر — اهلا وسهلا بالمسيو برليوز

برليوز — عم صاحا يافاجنر ! .. اما تراني قد شخت ؟.. اننا لم نتقابل منذ اثنتي عشرة سنة !.. أي حينما كنت في درسد

فاجنر — منذ درسد !.. انني اسعيد ومتأثر ! ..

برليوز — انك اصغر مني سنا بعشر سنين وهذه المدة الاخيرة من عمري كانها مضاعفة (ثم جلس وهو متعب)

فاجنر — (وقد جلس امامه) انني اعلم بان لبزت قال لي بانه هو الذي حرض على هذه المحادثة .. معذره .. فاني لااتكلم جيداً بالفرنسية . . واني احبك حبا جما يامسيو برليوز — رغما عن سوء الظن الذى يقصيك عنى !. .

برليوز — (يشير اشارة غامضة للاحتجاج)عجباً ! ...

فاجنر — انك لاتعرفنى ولـكنني أعرفك جيداً

برليوز — لقد سمعت ثلاثة فصول من رينزى وخيال السفينة

فاجنر — (باحتقار) عجباً ! هذا بعيد !..نعم انك لاتحب موسيقاي

برليوز — ولـكني معجب بقوتك وارادتك ..

فاجنر — واني معجب بقطعتك السانفوني فونيبر وانها لعظيمة من اول نوتة لآخر نوتة

برليوز ـ(وقد ابتسم)ولـكنك قلت ان موسيقى فوست حقيرة (ثم ضحك)

فاجنر — (يضحك بدوره) وأنت قلت ان انشائي الحر يجعلك ترقص فوق الحبل المرخي . .

ثم ضحك الاثنـان

برليوز — (ثم وقف فجأة وجعل يتفرس فيه) ومع ذلك .. فستكون أستاذ المسارح بعد خمسين سنة ..

فاجنر — (وقد نهض واحمر وجهه من الزهو والسرور من هذا الاطراء) عجبا! وانا اذا كنت بيتهوفن لقلت «لو لم أكن بيتهوفن ولو كنت فرنسياً لاردت أن اكون برليوز » لانك يامسيو برليوز الموسيقي الوحيد فى فرنسا الذي لم يقبل ان يحقر فنه ليكسب المال

برليوز — (يمد اليه يده) وأنت ايضاً

فاجنر(يجلس ثانية) يامسيو برليوز ان أصدقاءك فى المانيا وليزت وأنا وغيرى ننتظر منك مؤلفاً كبيرا . . درام

برليوز — هل تشتغل بتلحين شيء ؟

فاجنر ـ نعم بحلقة نيبيلونجين ... الا تعرف تانهوزر ولو هنجرين .. سأرسل اليك موسيقاهما . وماذا تعمل انت الآن

برليوز ـ انني افكر في تلحين قصيدة كبيرة موسيقية وهي اهل طرواده ..ليت شعرى هل أعيش طويلا حتى أتمها ... وهل تعلم اية مهنة أزاولها لاعيش ؟ . . (ثم نهض قائما)منذ ثلاث سنين سمعت في احلامي نغمات سنفوني .. كنت احلم اني اكتبها وفي الصباح استيقظت وتذكرت الجزء الاول واردت ان اشرع في كتابتها ثم قلت فى نفسي : «لو كتبت هذا الجزء لاضطررت ان اكتب الباقى ويستمر العمل مدى ثلاثة اوأربعة شهور... واضطر لترك تحرير القسم الموسيقي فى الجرائد .. فيقل دخلي وحينما تنتهي السنفوني اطبعها بالف أو ألف ومائتي فرنك ثم أقيم حفلة لتوقيعها فيغطي الايراد نصف المصاريف فاقصر في عمل الواجب نحو زوجتي المريضة ودفع مصاريف مدرسة ولدى فرميت القلم قائلا : « سأنسى غداً السانفونى » وفي الليلة التالية عادت تطن في دماغي ! فاستيقظت وكانت تأملات أمس تعاودني ثم نمت ثانية ولما استيقظت في الصباح اختفت من مخيلتي كل ذكرى الى الابد !

فاجنر ـ وأسفاه ان هذا شيء مؤلم كالانتحار أوالموت (فسالت الدموع من مآقى فاجنر وطفق يجفف نظارته المبللة بالعبرات)

برليوز ـ نعم نعم هذه بلادة مني ورخاوة . ولكن حينما تكون عندى زوج لاهي حية فترجى ولا هي ميتة فتنعى ويلزمها ثلاث نساء لخدمتها ويعودها الطبيب كل يوم وينقد اجره . واذا كنت واثقا تمام الثقة باني لااجد بباريس بعد انتهاء أي مشروع موسيقي الا نتيجة مشؤومة فاني لست الآن بليداً رخوا . . حينما

تركت التلحين . . بل كان عملي هذا انسانية ومروءة

فاجنر «باحترام» لقد تكشفت لي يامسيو برليوز في ضوء يختلف عن الضوء الذى رأيتك فيه فيما سلف . . وما زلت أشاهدك مشرقا كابطال الملاحم على رأس الاجواق الموسيقية التي تقودها في الحفلات كقيصر الاساطير!

برليوز ـ برليوز الاساطير ! وهناك الآخر فاجنر رجل فقير . وان التحيز والخصومة اللذين صادفاك قد اصطدمت في جدارهما بدون جدوى منذ ثلاثين سنة حتى تهشمت يداى وأصابعي . ولنعيش ويعجب بنا الجمهور ونكون محبوبين يلزمنا انا وانت ان نكتب في الموسيقى مثل ما كتب ميير بيروها ليفى اللذان شوها الموسيقي.

فاجنر ـ انني افضل ان أكون المسيو برليوز

برليوز ـ انك اسعد مني حظا

فاجنر ـ انني في بلادى كمن هدر دمه...

برليور ـ توجد مواطن للنفى اقسى من غيرها

برليوز ـ لقد هرولت طول حياتي مثل همات وراء طيف الحب.. وحينما تصورت اني ملكته وضممته الى صدرى أفلت مني واختفى.. والخراب والموت .. وآلام الوحدة ؟. .

فاجنر ـ ولذلك اردت ان نتفاهم وحدنا ، وعلى كل حال توجد بين بعض الناس الذين لم يفهمهم الجمهور والذين تساووا في الضراء قرابة متينة «فنهض برليوز وجعل يتفرس في فاجنر بأثر» وهذه السلسلة الخفية التى تربط أحدنا بالآخر في اخوة المحن والالم

برليوز ـ «يفتح ذراعيه» فاجنر ! .

ثم يتعانق الاثنان

الفصل الرابع

ماتت مارى ريتشو زوجه الثانية في ١٣ يونيه سنة ١٨٦٢ وعاش برليوز وحده مع والدتها مدام سوتيرا دوفيلاس وكان يفد اليه ابنه لويس وقت اجازته .

وفي شهر يوليه من هذه السنة كان ابنه يتحادث معه ويسأله عما حل بالاويرا المشهورة «اهل طرواده» فقال له انها تئن في محافظ الاويرا ولا اعلم متى يحضرونها وبينما هما يتحادثان اذ دخلت عليهما الخادم واعلنت قدوم فتاة فسأل عن اسمها فقالت انها رفضت ان تعلنه

برليوز ـ لقد عرفتها (ثم ينهض لويس) سنتعشى سوياً هذا المساء يالويس (فقبل) في الساعة السابعة ! لقد اعطيت ميعاداً لهذه الفتاة . وهي تريد أن تغني في المسرح ولكن ليس لها صوت اتعرف كيف تعرفت بها ؟ في ذات يوم كنت بمقبرة مومارتز وهذه رياضتي المحبوبة . وكنت جالساً على مقعد هناك وبكيت فاقتربت هذه الفتاة مني وظنتني متألماً فتأبطت ذراعي لاخرج من المقبرة ، وهي من عمرك ولها ست وعشرون سنة ثم صافحه ابنه وخرج (ثم اشار على الخادم بادخال الفتاة فدخلت وهي مرتدية ثياب الحداد وكانت عسجدية الشعر جميلة رشيقة القامة والهندام

برليوز ـ ادخلي بنيتي

اميلي — استاذي العزيز . .

برليوز — لا يليق بي هذا التعبير فقد شخت !

اميلي — كلا بلا !

برليوز — انك ظريفة (ثم أشار الى ابنه وهو خارج) انه ولدي ! .. تفضلي بالجلوس

اميلي — شكراً لك ايها الاستاذ

برليوز — خبريني اولا ماذا كنت تعملين يوم الجمعة في المقبرة وانها ليست نزهة شائقة لفتاة من سنك

اميلي — لقد فقدت والدي منذ عام واصبحت يتيمة اعيش مع عمتي

برليوز ـ ان هذا لمن الغرابة بمكان ! انني اتفرس فيك .. لانك تشبهين تمام الشبه فتاة كانت قرينة صباي وكنت أحبها وكانت تماثلك في القامة والوجه والعينين

ولا تختلف عنك الا في لون الشعر اذ كان شعرها اسود وشعرك ذهبي و كانت تسمى ايستيل وانت اميلي ! آه ! لو كنت تعرفين كيف يوقظ ويهيج حضورك عندى تلك الذكريات اللطيفة والتأثر الشديد

اميلي ـ وأنا قد عرفتك مباشرة

برليوز — هل تعرفيننى ؟

اميلي — لقد شاهدت صورتك مرارا ولذلك قد عرفتك وقلت في نفسي « انه هو !.. هو !..و أن الفنيين الذين احبهم واعجب بهم لهم أصدقائى !.. وهذا ماجرأني على الاقتراب منك فخاطبتك .. كنت تبكي ! وقد اضطربت لمشاهدة عبراتك السائلة ! .. وما كنت أتصور ان رجلا مثلك يتأتى له أن يكون سيء الحظ ! وانت مسيو برليوز العظيم بنبوغه وقلبه .. انت الذي تلتهب موسيقاك كالشعلة والضوء المشرق !.. كنت هناك وحيداً على المقعد متألما حزينا !

برليوز — لقد استحوذت عليك الشفقة لاجلي .

اميلي — ليست الشفقة هي الكلمة التى تؤدي المعني..ولست استطيع التعبير لقد أردت سلوا لتخفيف مابك ! فقل لي يامسيو برليوز انك اليوم أحسن حالا من ذى قبل

برليوز — «وهو باسم» نعم لوجودك « ثم امسك بيديها » ايها الشباب ايها الشباب المحبوب ياسحر الربيع ! ايستيل ، اميلي ايها السراب الذي يحييني ولكن سأموت

اميلي ـ ماذا تقول ؟

برليوز ـ «يهز رأسه» لقد بلغت الستين « ثم ينهض ويمشي في الغرفة بضع خطوات فتتبعه

اميلي ـ ليس هذا صحيحاً فان موسيقاك فتية كما ان قلبك فتى !

برليوز — انك لتتأثرين وتتألمين ان قرأت يوماً فى الجرائد : « موت فكتور برليوز » ؟

اميلي ـ (تتألم) اواه !

برليوز ـ (يجذبها اليه وهو متأثر) بنيتى ! ثم يقبلها فى جبينها فتستسلم فهلا يقبلها فى فمها ؟ ثم ينهض بغتة كمن عاد اليه شبابه ثم طفق يمشى في البهو بخطوات نشطة ثم فرك شعره وتكلم بلهجة حادة سارة يا لله ! واخسارتاه ، لاني لم اعرفك الا بعد فوات الوقت ! ولو جئت فى الوقت المناسب لصيرتك فتية عظيمة ! هل تريدين ان تغني فى المسرح ؟ يلزم لذلك صحة من حديد ! ويظهر لي انك رقيقة يا اميلى ... وفضلا عن ذلك فان صوتك رخيم ! ولو عرفتك من سنة واحدة لعلمتك غناء دوريباتريس لتغنيه بمدينة باد

* * *

فى شهر اكتوبر سنة ١٨٦٢ كان برليوز جالسا على مقعد فى منتزة مونسوفر عليه لوجوفيه الكاتب الشهير فجلس بجانبه يتجاذبان اطراف الحديث ثم أخرج برليوز خطابا من جيبه ناوله للجوفيه .

برليوز ـ اقرأ «يقرأ السطر الاول ثم يقف»

لوجوفيه ـ انه خطاب غرام ؟ مرسل الي . . . ؟

برليور ـ لاتضحك . انه مرسل الي

لوجوفيه ـ اننى لاأضحك «ثم قرأ الامضاء» اميلى ؟

برليوز — اميلى ... انه حب اتاني دون ان ابحث عنه وقد قاومته . . . ثم استسلمت له... ثم اشتد معي

لوجوفيه ـ هل هى فتية؟

برليور ـ انها فتاة في مقتبل العمر

لوجوفيه ـ هل هي جميلة؟ «فاشار برليور برأسه نعم» وهل هي تحبك ؟ فما تشكو وماذا جرى لك .

برليوز ـ جرى لى اننى بلغت الستين

لوجوفيه ـ واذا كانت لاترى فيك الا شابا فى عقده الثالث

برليور ـ الم ترخدي الغائرين وشعري الابيض وجبيني المجعد وهذه الفكرة

المشؤومة ما لبثت تساورني و كانت تأخذ رأسي بين يديها وكنت أشعر بدمعها المنحدر على عنقي .

لوجوفيه — (يرد اليه الرسالة) هذه الرسالة صادرة من فتاة عظيمة ذات قلب مفعم بالحنان والحب .

برليوز — لقد وصلتني هذه الرسالة منذ ثلاثة أسابيع ثم انقطعت أخبارها ولقد كتبت لها أخيراً انني انتظرها في هذه الحديقة هذا الصباح . . . ليت شعري هل تقبل ؟ جس قلبي !..

لوجوفيه — انك ابن عشرين كما قلت لك وسأتركك أيها العاشق العزيز (ثم يصافحه ويخرج فتأتي اميلي وهي شاحبة اللون نحيفة)

برليوز — هل انت بنفسك

اميلي — صديقي العظيم ... (ثم اجلسها بجانبه على المقعد)

برليوز — (يقبل يدها) بنيتي العزيزة ... لقد رأيتك بعد ما نفذ مني الصبر وكنت متألما تعسا ! لم لم تأتي يوم الاثنين والجمعة ؟ وقد انتظرتك طويلا . . وما اشد عذابي ولم يأتني منك خبر ولا رسالة .

اميلي — لقد فكرت فيك . . معذرة فانني لم استطع المجيء ولا الكتابة ... (ثم اطرقت رأسها)

برليوز — (ينظر اليها وقد دهش من شحوبها) انظري الي ما أشد شحوبك هل كنت مريضة ؟

اميلي — (وما فتئت مطرقة الرأس) كلا

برليوز ـ يداك الصغيرتان حارتان (ثم تسعل) . هل انت محمومة ؟

اميلي ـ كلا ولا اشعر بشيء

برليوز ـ اميلي . . (فبكت) لم تبكين اخبريني ماذا دهاك

اميلي ـ سأترك باريس مدة طويلة وربما على الدوام

برليوز ـ (وقد صعقه الخبر) اواه

اميلى ـ يجب ان اتبع عمتى الى الجنوب

برليوز ـ وماذا العمل ؟

اميلى — لن نتمكن من المقابلة (ثم هزت رأسها) لا . وهذا أفضل شيء ...

برليوز — (وهو متألم كاسف البال) اني بلغت الستين .

اميلى — كلا ! فان السبب لايرجع اليك بل يرجع الي وحدي ! والآن تستطيع أن تنساني لان الفراق بعد فوات الوقت مؤلم قاس

برليوز — انك تتكلمين بالمعميات والالغاز .. ولا أفهم لك قولا ..

أميلى — لاينبغى أن تحاول الفهم . . يجب علينا أن نفترق الآن بدون توان ثم تسعل أيضاً — ومن الحكم آن نفترق بارادتنا .

برليوز — وبدون تعويض كالموت ؟

اميلى — بشدة . نعم كالموت ثم نهضت ولبث برليوز جالساً كالمصعوق

اميلى — (بتألم) وأنا الذي احببتك ! . وما زلت أحبك !.. وأقسم انني لن أحب أحداً مثلك فهل تصدقني وتثق بي؟

برليوز — (يقبل يديها) بنيتي ؟

اميلى — (تخلص يديها منه) واعلم انني حينما أودعك فانما أودع كل شيء .

برليوز — (وهو قائم) اميلى

اميلى — الوداع ! (ثم هربت مهرولة)

ننتقل بالقارىء الى مقبرة مونمارلتر فى صيف سنة ١٨٦٤ وقد كسى الربيع المقبرة بحلله القشيبة السندسية المزهرة حتى أصبحت كالحديقة الغناء وكان الحارس واللحاد يتحادثان وفي هذه الآونة أقبل برليوز وهو مرتد ثياباً سوداء يمشي بخطوات ثقيلة كانه طيف خيال فحياه الرجلان باجلال فرد عليهما التحية ثم ذهب الى قبر ووقف أمامه

الحارس — (يخاطب اللحاد) أتعلم من هذا ؟

اللحاد — كلا

الحارس — المسيو برليوز

اللحاد — ومن هو ـ هل هو من أمراء البحار

الحارس — لا بل هو .. (يبحث في ذاكرته) يلحن أوبيرات وهو يأتي كل يوم شتاء وصيفاً ويقطن قريباً من هنا فى شارع كاليه.. وفي أوقات المطر التى لاتخرج فيها الكلاب من المنازل تراه يجول في المقبرة وحده .

اللحاد — وما يفعل ؟

الحارس ـ ان سيره لا يتغير وتراه يقف امام القبر هناك وقد دفنت فيه زوجه الثانية منذ عامين وكان متزوجا قبلها من ممثلة ماتت منذ عشر سنين ... وقد دفنت في اول الامر في مقبرة سان فانسان ثم نقلت رفاتها فى فبراير الماضي الى هذا الرمس وهما الآن يغنيان مع بعضهما مع انهما كانتا عدوتين لدودتين .

سار برليوز فى طريق آخر فلمح مقعدا فجلس فوقع نظره على رمس جديد فسأل الحارس لمن هذا الرمس الذى لم اره قبل اليوم لاني امر نادرا في هذا الممر

الحارس — هذا لحد فتاة ماتت بالسل منذ ستة شهور

برليوز — كم لها من العمر ؟

الحارس — (وقد قرأ التاريخ فوق القبر) ولدت في مايو سنة ١٨٢٧ (ثم حسب) سبع وعشرون سنة . برليوز (وهو يهز رأسه) سبع وعشرون سنة ! (ثم نهض واقترب من القبر وقرأ ما كتب عليه فصاح) اواه ! . . . اميلى ! . . . انها هي . (وكاد يقع لولا انه استند الى شجرة) اميلى !

الحارس — هل تعرفها ؟

برليوز ـ انى اعرفها (ثم وقع قاعدا على المقعد واخذ يحدث نفسه) قد ماتت منذ ستة شهور ولم ترض تخبرني بانها في انتظار الموت العاجل وكان لها من العمر ست وعشرون سنة . جميلة رقيقة تكتب كأنها ملك السماء واتفقنا على الفراق وقطع المكاتبة وقد رأيتها من بعيد فى المسرح فأشارت برأسها . وكانت تعالج الموت

ولم أعلم حقيقتها ثم ماتت بعد ستة أسابيع ولم أدر بموتها أواه ! رحمة وحناناً وكفاني اللهم عذاباً وألماً .

* * *

ننتقل الى منزل برليوز في ٨ مارس سنة ١٨٦٩ وكانت مدام سوتيرا دوفيلاس حماة برليوز تهيء مخدات على كرسي (فوتيل) فادخلت الخادم المسيو ريبر الملحن الشهير

مدام دوفيلاس ـ أهلا بعزيزي المسيو ريبر .

ريبر ـ (وكان في الخامسة والاربعين من عمره) عمي مساء سيدتي . . . كيف قضي ليلته ؟

دوفيلاس ـ على اسوأ حال وقد ايقظني في الساعة الثانية صباحا ليسألني ان كان وصل خطاب من لويس وفي بعض الاحيان ينسى ان ابنه فارق الوجود .

ريبر ـ يحسن ان يترك جاهلا موت ابنه

دوفيلاس ـ وماذا العمل ؟ وقد خانني الدمع وانقطعت رسائله . . . وفي ذات يوم كنت اتحدث بصوت خافت مع الخادمة في غرفة مجاورة لغرفته فاقترب منا هكتور وسمع كلمة (الحمى الصفراء) ثم خرج فقابل في الطريق أحد اصدقاء ابنه فقدم له واجب العزاء فرجع الى البيت وصار يتمرغ في أرض الغرفة ويصيح « كان الموت أولى لي »

ريبر ـ هل هو نائم ؟ هل يمكنني مشاهدته ؟

دوفيلاس ـ سيستيقظ . . ولقد حاول البارحة ان يذهب الى المجمع العلمي

ريبر ـ نعم ليعطي صوته لشارل بلان لان برليوز مخلص ووفى لاصدقائه

دوفيلاس ـ انه يحبك يامسيو ريبر كولده ومنذ وفاة المسيو دورتيج اصبحت أنت والمسيو سان صانس اعز اصدقائه (ثم تسمع حركة) انتظر فاني اظن انه استيقظ (ثم اقبل برليوز مستندا الى خادمه ثم تقدمت اليه دوفيلاس واجلسته على الكرسي (الفوتيل) واسندت ظهره الى وسادة فعانقه ريبر)

برليوز ـ « وكان كالاموات خافت الصوت » اشكرك يا ريبر .

ريير ـ لقد لاحظت انك لم تكتب الاهداء على نسختي بينفينوتو واني اكون مسرورا ان وقعته

برليوز ـ نعم ياصديقي العزيز « ثم ناولته دوفيلاس القلم فكتب » الى صديقي العزيز ... « ثم وقف وتفرس في ريير » آه لقد نسيت اسمك

ريير ـ ريير . برليوز ـ كتب ارنست ريير ثم دخلت الخادم واعلنت حضور المسيو كاميل سان صانس

سان صانس ـ « وكان في الثالثة والثلاثين » كيف نمت يا أستاذي العزيز؟

برليوز ـ لم انم (ثم اشار الى سان صانس) انه موسيقي عظيم يعرف جلوك كما اعرفه (ثم يميل رأسه الى الوراء) لقد اقبلوا . . . ولكنني سأذهب (يتألم ويشكو) آه .

سان صانس ـ هل انت متألم . برليوز ـ نعم.

ريير ـ « مخاطبا دوفيلاس بصوت خافت » ألم يكتب له الطبيب دواء مسكنا

دوفيلاس :ـ لقد كتب ولكنه لا يريد ان يشربه .

سان صانس ـ ماذا نعمل يا آلهي لنخفف آلامه ؟

برليوز ـ « وقد فتح عينيه حينما سمع القول » هذا عندي على حد سواء « ثم سكت » انني اريد ان اموت في الشمس وامام البحر .

سان صانس ـ ان شهر مارس لفظيع مرعب ! وستمطر ثلجاً . أنظر كيف أظلم الجو .

برليوز — لا تتحادثوا وان استمررتم فانني أحب أن لاأموت (عم السكوت وأغمض برليوز)

سان صانس — (بعد لحظة) هل نام ؟

دوفيلاس — لقد نام

سان صانس — فلنتركه ليستريح .

ريير —(مخاطباً سان صانس) لقد عانقته البارحة! أتعلم ماذا قال لي ؟ آه ! كلمة

مؤلمة عظيمة ! «وقصارى القول هل سيوقعون موسيقاي ! »

ثم خرجوا على أطراف أصابعهم وأقبل الليل وقد رمى ضوء الموقد شعاعاً على وجه برليوز و كان يظهر عليه أنه نائم وكأن نداء أتاه من العلا فى الليل البهيم ثم يسمع توقيع دعاء الاموات من وراء الستار موقعاً على الارض ويغنيه المنشدون وتمتلىء الغرفة باشباح الموتى وتظهر ايستيل واميلى وهاربيت سمتسون ونانسى واديل وماري ريتشو ولويس برليوز فيفتح برليوز عينيه .

برليوز : دعاء الاموات . هل حضر الجميع لسماع دعائى للاموات.. هاربيت .. نانسي .. اديك ... مارى ... اميكس ... لويس الصغير ...

ثم اعتدل على كرسيه ورفع ذراعه وطفق يضرب الوزن فاقتربت منه الاموات وأحاطوا به ثم مالت ذراع برليوز وفارق الوجود .

عنتره

مأساة شعريه في خمسة فصول

لفخر الشرق المرحوم شكري غانم

ينتمي هذا الشاعر العبقرى الى أسرة عظيمة لبنانية ، وقد نبغ فى الشعر الفرنسى وله ديوان فرنسى ظهر حوالي سنة ١٩٠٠ وروايتان مثلتا بالأوديبون سنة ١٩٠٥ في فصل واحد وهما « ورده » أو « زهرة الحب » و « ربع ساعة من الف ليلة وليلة » ورواية قصصية كبيرة تسمى «دعد» واهم رواياته التمثيلية عنترة وقد ابت عليه قوميته الا ان يبتدىء بتمثيلها على مسرح شرقي فاختار الاوبرا الملكية المصرية ولحسن حظه كانت فرقة الكوميدي الفرنسية في ذلك الوقت مؤلفة من اعظم الممثلين الذين يسود على مجموعهم الانسجام والتوافق وفي مقدمتهم الممثلة القديرة مرجريت مورينو وقد تقدمت بها السن الى ان أصبحت تمثل دور العجائز

وقد قامت بدور عبلة ، وداراجون وقد توفي بالانفلونزا منذ بضع سنين وقد قام بدور عنترة ، ومونتو وقد مثل دور وزر المعروف بالاسد الرهيص .

ومن الغريب المدهش انهم حفظوا الرواية واخرجوها واعدوا مناظرها في خمسة عشر يوما وقد سحروا الجمهور بابداعهم النادر وكانت الرواية موفقة من جميع الوجوه .

اشتهرت موريتو بحسن القائها ونبرات صوتها الموسيقى وكانت تلقي الشعر بسهولة وهي تقلد سارة برنار وتضيف الى ذلك قدرا كبيراً من شخصيتها الخاصة وعواطفها المتأججة وحركاتها الخالية من كل تكلف ، ورشاقتها النادرة وظرفها فى الحديث . وقد مثلت دور ابن نابليون فى النسر الصغير وروكسان في سيرانو دوبرجيراك . وقد فتنت النظارة في هذه الروايات الثلاث ولم يستطع أحد من الاجواق ان يحرز هذا النجاح من سنة ١٩٠٩ الى الآن

مثلت رواية عنترة المرة الاولى بمسرح الاوبرا الملكية . ثم مثلها مسرح الاوديبون بباريس فى ١٢ فبراير سنة ١٩١٠ فلاقت اعجابا شديداً ونجاحا باهرا وقرظتها اغلب الجرائد الفرنسية الشهيرة مثل الفيجارو والجولوا والأكلير والدبيا والطان والليبرتيه ومجلة التياتر المصورة والاوبنيون كما قرظتها وذكرت ملخصها دائرة معارف لاروس في ملحقها الشهري سنة ١٩١٠ . وهي تستحق اكثر من هذا لبلاغتها النادرة وتفكيرها العميق وتحليلها الاخلاقي ومناقشتها الطلية وعواطفها المشتعلة ورقتها ومواقفها الفنية الرائعة .

ومن سمو اخلاق شاعرنا النابغة ونبل عواطفه أنه أنبأ في القطعة التى أوردناها عن اقتراب ظهور النبي (ص) وما سيكون له من شأن خطير كما نوه باعجابه الشديد ببلاغة القرآن بعبارة تستعصى بلاغتها على اي شاعر مع أنه مسيحي فجزاه الله خيرا ورحمه رحمة واسعة

المنظر الثالث

من الفصل الرابع

عنترة . ثم شيبوب ووزر ابن جابر الملقب بالاسد الرهيص (يدخل عنترة فى الحال)

هل هو عربي ؟ لا ... كان الخائن مختبئاً فى الظلام وراء هذه الصفاة كالذئب، ولا بد أن يكون أجنبياً

(يسمع صوت شيبوب من بعيد)

هاهو ذا شيبوب ، هل يقوده ، لانى أرى شبحين

شيبوب (يتكلم بصوت مرتفع)

تقدم !

(ثم ينظر شيبوب وهو يجر وزرا من يده)

لقد قطع الخوف ساقيك اوعز عليك البقاء فودع اذن الحياة

(مخاطبا عنترة الذي يقترب منهما)

لاجدال ولا ريب افانه يستر وجهه! وعيناه لا تخترقان حجب الظلام الا لرمي السهام ، وسيطفيء الموت شعلتيهما بعد قليل

يجره بجانب عنترة وهو جالس على صخرة وكان شيبوب يتكلم وهو سائر حتى يصل الى عنترة)

لاتبصران الصخور ولا الحائل ولا الجحور حتى انني كدت أن أحمله

عنترة ـ لكنه يحسن الهرب!

شيبوب ـ لا ، انه لم يهرب وكان جالسا على مقربة من صفاة ، وقد طعن نفسه بسهم عندما اقتربت منه ، وترى هنا قليلا من الوضوح فانظر!

(ثم يزيح شيبوب اللثام عن وجهه ويحدق فيه)

آه ! وزر ! !

عنترة — وزر ؟ أنحلم؟ كلا !

شيبوب — هو بعينه

عنتره ـ الفارس المحتال الذي عرفته من قبل؟ (ثم يحدق به هنيهة) نعم نعم كيف تكون خائنا ؟ اقبلت في الليل الدامس لتقترف انما ملؤه النذالة والصغار ، ولم ير مثله في البلاد العربية ! هل بلغت بك السفالة ان تفعل فعلتك هـذه ؟ ماذا عملت بقناتك وحسامك ؟ لقد أحسنت بستر وجه دمغ بميسم النذالة والجبن . ما أبشع هذا الوجه الدميم . أتنهض وترفع عينين باردتين ملؤهما الخجل والخزي ؟ أم يتلهفان لاقتراف جرم آخر ؟ تكلم .

وزر — عيناى فارغتان وقد استعضت عنهما بقلب ملىء حقدا !

عنترة — ولم ؟ وعلى من تحقد ؟

وزر — لا تتجاهل وما هو الا عليك !

شيبوب — ماذا تقول ؟

عنترة — دعه ! ويلزم أن يوضح هذا الرجل. أجب !

وزر — أنظر اذن ! ها هوجوابي ! هاتان العينان الخامدتان المفقوأتان كأنهما جحران أسودان كئيبان ! آه ! انك تسميني الذل ياعنترة وما الذل الا أنت !

شيبوب — قد بلغ السيل الزبى !

عنتره (وهو يزيح شيبوب عن وزر)

انى اجهل أمرك ، ولقد أسرتك من قبل وانا راع صغير الشأن وانت فارس مدجج بسلاحك ثم سافرت فى مساء ذلك اليوم وسلمتك الى غيري ولا أعلم مافعلوا بك في غيبتى وأنت أسير

وزر — ألم تك أنت الذى أمرت أن يفقأوا عيني ؟

عنترة (وقد غير لهجته شيئا فشيئاً)

كلا ! فاني لاأعرف أن أسىء الى ضعيف . أما كنت أستغرب ماحصل لك منذ هنيهة ؟ وكيف لي وأنا الذى مازلت أحارب ورائدى الشرف ومبدئي النبل أن تعزو الى هذا الجرم الفظيع دون عذر أو مبرر. أو يتهمنى به عدو مقهور موتور

نهش صدره الحسد . انتى فتنت بالحروب وهي صناعة كثير من الملوك ذوى الحول والطول وغيرهم من السادة الامجاد الذين لا يستطيعون أن يشقوا لهم طريقا إلى الافئدة ويعتقدون أنهم بالغوها بظبا البيض الصفاح ، وهذا خطأ ظاهر وما فتىء الانسان عرضة للخطأ

أيترك الانسان حنقه ليبطش بالمقهورين ويخفى أرواحهم من أعماق جفونهم ويسلبهم حقهم في هذا النور حتى يجعلهم أمواتا وهم احياء كلا ! ثم كلا ! وأقسم بهذا الهلال الصدفي الذى بزغ في السماء ، انني لا أستطيع أن اقترف مثل هذا الاثم . انهم يريدون أن يلوثوا اسمى بمثل هذه الريبة ويجردونى من الخير الوحيد الذى يقود الى المجد والفخار وهو الطيبة ... فهل تثق بي اذن ؟

وزر ـ اثق؟... نعم!... أود أن لا أثق، انني أبحث في قلبي وافتش في ذاكرتي لان عندي أسبابا أخرى أهم وأقوى تبرر بغضك !... مهلا !... (يناجي وزر نفسه على مسمع من عنترة) ان كان ترك لك عينيك ولم يكن لك جلاداً فهل كف ان يكون خائنا لكل عربي يحب حريته واستقلاله . انه يريد أن يبيع ويسلم بلاده الى الفرس

(ثم يوجه الكلام الى عنترة) وهذا ماأعرفه منذ اكثر من عامين ، لقد كبر وعظم جرمك حتى برر كل اعتداء واغتيال وسحب ذيل النسيان على الجريمة التي كنت ضحيتها ، والعربي لا يحفل بفقد عينيه وموته فى سبيل انقاذ بلاد العرب

عنترة — هل نصبت نفسك حكما ؟

وزر — (وقد اطمأن شيئاً فشيئاً)لقد حكمت نفسى بكل الوسائل من سلاح وقول وكل ما يصلح للقتل والانتقام ، اما تراني اذن جريئا سفاحا ؟

عنترة — عجبا لك ! كيف يعرفون أن يشوهوا الحقيقة الحسناء ! يخفون صورة الجمال تحت كثيف البراقع والاصباغ كالعجائز ينقشن وجوههن بالوشم ويتكحلن ويصبغن خدودهن بالحمرة . يريدون ان يزيدوا الجمال حسنا فيشوهونه . يجب أن تغمره الشمس وهو فى صحة عريه فيتركونه فى بساطته ووداعته ويزيلون هذه الصبغة الدميمة التى تحجبه

أصغ لي ياوزر : فاني ساجعل جمال الحقيقة ولونها الوضاح يخترقان جسمك الى أن يبلغا نفسك السوداء وسوف أقتل فيك الريب والشك بكلمة : اما كنت فيما مضى صديقا للملك المنذر

وزر — أنا ؟

عنترة — نعم أنت ! وتعلم جيداً مقاصد هذا الملك

وزر — (بلهجة مرة) بلى ، وهي وحدة العرب في يد ملك فرد، وهذا صحيح، ولكن ذلك لم يكن الا حلماً لذيذاً

عنترة — ماهو الآن بحلم

وزر — وكيف ؟

عنترة — لقد تخلص وتحرر من نير الفرس وسأنضم اليه الآن . . .

وزر — تنضم اليه ؟

عنترة — وستظهر حكمة فرد آخر كطلوع الفجر ويؤيده الله بقوته فينشر قوله الابدي . ألا تشعر بالارض وهي تميد قبل انتشار هذا القول الذي سيمليه على الناس رب قوى عظيم . لقد زلزلت الارض زلزالها واهتز النخل في الصحراء من عبث رياح السماء اللواقح ، وأصبحت آمال الانسان تتتابع مسوقة بنسيم الصبا كأسراب هائلة من بنات الهديل تنشد ايكا تحط عليه لتريح أجنحتها المتعبة فلا تعثر عليه . تسير تلك الاسراب حيارى مترددة لاراند لها الا المصادفات : ولكن المغرب سيتوهج شفقة بزخرفه وقد اقترب الزمن الذي ستتصل فيه الارض بالسماء حتى يسمع أهل الدنيا كلام الله الكريم ، كلاما ذهبياً في اطار الالفاظ اللجينية ، وستهب قبائل العرب من كل فج عميق من فيافيهم المترامية الاطراف وقت طلوع هلالهم الفضي المتألق ...!

(ينوه في هذه الفقرة عن اقتراب ظهور النبي (صلى الله عليه وسلم) ونزول القرآن)

وزر — اواه ! انني لاشعر باستنارة أمارتي بالسوء باحمرار الفجر وضوء اللهب صبت عليكم اللعنات يامن خدعتموني ! لقد قطع سهمي خيط حياته الذي تتعلق

به آمال أسلافنا وهذا الخيط الذى انتظمت فيه حبات المستقبل ! يالكم من خونة مجرمين ! وان قبره ستدفن فيه بلادى ! عفوا وغفرانا !

عنترة — لقد عفوت عنك وسامحتك ولكن هذا الجرم سيقع على من حللوه وان أثمك قد خط فوق الرمال وسرعان ماتمحوه الرياح ، ولكن المجرم المحرض سيلاقي جزاءه في القريب العاجل ان امتد الاجل ، وإني أحمد الله وأمجده وآمل أن يكون الجرح خفيفا ...

وزر ـ (بلهجة قوية وأنفاس مضطربة) ماذا تقول ! هل أصابت طعنتي؟

عنترة — لقد أصابت ذراعي وليس لها أقل تأثير

وزر ـ (وهو هائج) انها لعظيمة خطيرة ! فاسحقني بحجر من هذه الاحجار كما تسحق العقارب والافاعي! ادفعني بقدمك بكل ازدراء واحتقار فانني لا استحق أية رحمة ولاشفقة ! انني لتعس شقي ! وان جرمي لعظيم لم يخط فوق الرمال . لقد نقش نقشا عميقا فوق جسمك الكبير الذى يماثل النحاس بصلابته بآلة الحقد والحفيظة ! فاسحقني سحقا !

عنترة — ولم هذا اليأس ؟

شيبوب ـ انني خائف !

وزر ـ هل اسود الجرح ؟

شيبوب (وهو يزيح الثوب عن الجرح) نعم قد اسود !

وزر — (وقد كشف عن صدره لشيبوب)انظر هل اسود جرحي مثله ؟

شيبوب ـ لا يفترق عنه

وزر ـ (وهو خائر القوى) هذا هو المنتظر ! ولا يغني حذر من قدر ، اي عنترة ! قد اشتريت جرمي بحياتي واني اريد نجاتك ولا استطيعها لان سهمي يحمل السم الزعاف بين اسنانه...

شيبوب ـ ويل لك من شقى ! ألا تجد له دواء ؟ . . .

وزر ـ هيهات هيهات

شيبوب ـ ولو يقف سير السم

وزر ـ لاينجع فيه دواء

شيبوب ـ ولكن الادوية كثيرة جداً

وزر ـ كلا ان سمى لادواء له وهو يندفع كالسيل وهو هو الذى يقتلنى انني اعالج سكرات الموت ياعنترة فاصفح عنى وسامحني !

عنترة ـ مت بسلام واطمئنان !

وزر — ما العمل الآن؟ ويل لي من شقي ! لقد نسيت ! اسرع عنترة وفوت مالك وزوجك ورجالك من هذا المضيق ، فان عمارة الوغد الذي قادني الى هذا المكان يتربص لقتلك ... ومعه مائتان ... وسيمرون من هنا

عنترة ـ اننى مازلت قويا قائماً على رجلي فقل لي أين هم ؟

وزر — كلا ، فلات ساعة لحاق يا عنترة والافضل الهرب...

عنترة — الهرب

وزر ـ ليس لك ! فلا فائدة لك منه ترتجى ... ولكن الآخرين فهربهم وان ساعدك لكفيل بتهريب زوجك وعشيرتك . . . فعجل دون ان تنتظر أن يكفر موني عن حياتى ...

شيبوب ـ اواه ! انك لن تموت

عنترة ـ لم يرد الموت ان يدركني في الحروب !

شيبوب (مهددا جثة وزر) ويل لك أيها الخائن !

عنترة ـ (يمنعه) ولم هذه الاساءة للموتى ؟ فلينم بدعة وسلام وان موتي لن يختلف عنه في الاجل والشكل وسيموت كلب ضال وهو في عنفوان قوته دون ان يثب الوثبة الهائلة ليصل الى الماء وينهل الحياة . ولما شحب لونه واسلم روحه الصغير ومن يعلم لاى جلاد ؟ . . مات من غلته أمام خرير الماء . كلا فأني سأثب هذه الوثبة مهما حل وحصل ! وسأحيا !! وسأحيا !! اذ لابد ان احيا . اوقد النار ياشيبوب واصهر حد السيف اوالرمح فان السم مهما بلغ امره فلا يقوي على الحر ق اذا ماتعدى

الجرح وان مت فسأموت مختالا فخورا . ويخيل الى وقتئذ انني قتلت بالحديد

(وقد اسرع شيبوب في ايقاد النار بقطع من الخشب ثم وقعت عيناه على جثةوزر)ولكن الآخر مات بنفس الجرح وقد سرى السم في جسمه وأصبحت جثة بمثابة نذير ! إلهي انما انا عبدك وخادمك ! انني اسعى واعمل لك فلا تمتني هذه الميتة بل على الاقل في الموضع الذي ينتظرني فيه الحصاد ! بالهذه الجثة ! انني وجل! وعيناي تطرفان أمام الموت كما تطرف اجفان المولود الجديد من الضوء .ما انتابني قط الخوف فكيف حل بى الآن . واذا كان الانسان في الحروب مقداما جريئا فهل يكونه دائما في كل المواقف ؟

(ثم يسوق الكلام الى شيبوب) هل تمكنت من مشاهدة عبلة وتطمينها ؟

شيبوب ـ انها نائمة وتنتظرك وهي واهية القوى من وعثاء الرحيل والتأثر والفضل لسلمي فى تهدئتها

عنتره ـ ماأعزك على ياعبلة!

شيبوب ـ لقد احمر النصل

عنتره ـ يجب أن تضع النصل المصهور في الجرح دون اضطراب وارتعاش فان حياتي معلقة به

شيبوب ـ واسفاه ! ستتألم كثيرا

عنترة ـ كلا ! احرق! احرق فاني لااحب أن أموت (ثم يعري عنترة كتفه فيكوي شيبوب الجرح)

ثم ينزل الستار

الفصل الخامس

عنتره وشيبوب

يأتيان من المعسكر والوهن باد على عنترةوهو متوكيء على كتف شيبوب

شيبوب ـ نعم ، لقدبددصوتك الشك عندهم والباقون سيستعدون لموالاة سيرهم

عنترة ـ ولكن هذا يوم الراحة الذى وعدوا به

شيبوب ـ لم اقل عنه شيئا البارحة ، وقد ارجأت البت فيه الى هذا الصباح

عنترة ـ الا يدهش أحد من هذا السفر السريع ؟

شيبوب ـ كلا وفضلا عن هذا فلا يعلم القريبون منا ولا البعيدون بمصابك.. هل تشعر بتحسن ؟

عنترة ـ ان نسيم الصباح يطفيء قليلا الحمى! والكي وحده الذي يؤلمني ! هل دفن ميت البارحة ؟

شيبوب ـ أجل ، هناك بجانب تلك الخميلة

عنتره ـ ان الموتى مهما بلغ أمرهم لهم الحق فى الراحة . ولننتخب الآن المكان الملائم لمشروعي ... هناك ! لا .. بل بجانب تلك الهاوية فانها مكان مكشوف قليلا ... ويجب أن يتمكن العدو حينما يصل من رؤية عنترة حيا أو ميتا والآن أيها الرفيق والاخ يجب أن نفترق في هذا المكان ولنرجع من هذا الطريق الذى كان بالامس طريق الامل ، أما أنا فسأتمم حياتي وواجبي

شيبوب — ألا تريد اذن ان أنوب عنك

عنترة ـ ولم ياشيبوب يحدث موتى ارتباكا فى سير الامور ؟ وتصبح عبلة وسط هذا الاضطراب دون ان تتمكن من الوصـول الى الملك ؟ لا ! بل يجب أن ينفع حتفي رجالي وعشيرتي ومجدي ويترك نقطا من الابريز الوهاج فى صفحات تاريخي!

شيبوب — ولـكنني سمعت ان لدي للنذر كثير من علماء الطب فتعال! تعال! ومن يدرى ؟

عنترة — لقد فات الوقت ، اذ بيننا وبين النذر ثلاثة أيام ولقد مات وزر بسرعة ولا مرد للقضاء

شيبوب— نستطيع أن نؤخره بجهد عظيم !

عنترة — لايمكن تأخير ساعة الموت ، ولم هذا الجشع الذى ينقص الكرامة ويسقط الاعتبار . وصباح حافل بالحوادث خير من يوم عظيم خال . . . . . أتبكي ؟ ومتى كانوا يبكون فارسا سقط عن جواده في ميدان المجد والفخار ؟

شيبوب — انني أبكي قومنا جميعاً ، أبكي بلادك وأمتك وكل ماسيموت بموتك . عفوك اللهم وغفرانك !

عنترة — ان مستقبل الامة والبلاد لايتوقف على فرد ولو كان فارس الزمان أو كان ملكا دانت له الدنيا من أقصاها الى أقصاها ولا شيء يقف تقدم أمة .انني أراها ترقى وتتقدم من المشرق الى المغرب في ازدهاء كسف الكوكب الذهبي في فلكه . ولا يهم النسور المختالة حتى الخطاطيف ريشة تزيد أو تنقص من أجنحتها القوية !

شيبوب — كلا ياعنترة ! فان هذه الفكرة لاتنطبق على ذويك !

عنترة — حتى ذوي ! اذ سيكون ألمهم شديداً ينفذ الى سويداء قلوبهم.وكل شيء في الدنيا يتألم حينما يولد أو يخلق حتى الحبة تتعفن قليلا قبل أن تنبت وما الحياة الا ثمرة شجرة الموت . اذهب وارحل فلربما رأيتني في يوم قريب وسأظهر لك مرة ثانية في الخيط الاسود الذي يخطه موتي في الموضع الذي مر فيه الزارع . وستنبت تحت قدميه الحبة التي بذرها .سافر واسهر عليها واحرسها أيها الصديق والحارس الامين ، ومن يدرى ماذا سيكون شأن المولود الذي ستلده

شيبوب ـ(وهو ناظر الى جهة المعسكر) اذهب وكن على رأس الجند ومر من المضيق !

عبلة ـ(آتية من المعسكر وهي تعدو وشيبوب وراءها .) اواه عنترتي لقد فهمت كل شيء وحدثني به قلبي لا تمكر علي فان قلبي لقلب بطلة . ولو أنه تألم كثيراً ولكنه يستطيع أن يستمر في ألمه (ثم تقع على قدميه) انني لا أتألم اذا شاطرتك حظك ، أما أنا ظل ارتبط بظلك ؟

عنترة (وقد غالب آلامه)

هذه زهرتي المسكينة قد أضجعها إعصار وهي مثقلة بماء السماء . انهضي فان الشمس ستشرب وهي منحنية عليك عبرات حبك . لقد بدد الحديد المصهور كل خوف واني لاشعر بخفة وطأة الموت وأكاد أفلت من مخالبه . وانك تستطيعين

ياعبلةان تذهبي وانت مطمئنة مرتاحة البال (ثم يقول بلهجة حنان وتأثر) هذا واجب عليك ، وان لك غرضا يجب ان يكون نصب عينيك ستبتهج له نفسك وهو امل عظيم يتوج المرأة ويولد الغد من اسراره الخفية . . . وحبذا لو نضجت ثمرة حبنا ياعبلة وان مت وجب عليك ان تضاعفي حبك لهذا المخلوق الصغير (ثم يبتسم) ولكن ما العمل ؟ وكأني احزنك واقطب جبينك واسعد عبراتك ، ولكن كل شاعر حزين الفؤاد ولو من غير ماداع ولا سبب

عبلة (تنهض وهي منهوكة القوى مصعدة الزفرات) سأرحل ولكنك لاتخدعني واعلم أن كل لحظة أو خطوة تبعدني الى الابد عن وجهك ونظرك المملوء بالعطف والحنان ، ولا تقلّ عنك شجاعتي وسأذهب طائعة ، وانمى ان ألد ولدا يثأر وينتقم لابيه ! واني احب الحياة لاجلكما . وهل يساعدني الحظ على نيل هذه الامنية ؟

عنترة ! إنني كالسكرى من هذه الضحية وذلك الالم . فالوداع الوداع ! وآمل أن لا تلين عبراتي من قناتك ثم يتعانقان

عنترة ـ الوداع الوداع يا ابنة الامير النبيل سلالة الابطال الاماجد الذين يقابلون الاهوال بعيون كعيون النسور القشاعم ، ان دم اسلافك لايكذب كما يصدق دم راعيهم القديم الذي نال الشرف اليوم (ثم يصطحب شيبوب عبلة)

اذهبي ولن ترحلي وحدك ياعبلة ، ان نفسي لتشيع خطواتك وسأجعل نصب عيني الساعات والايام التي نسجت منذ طفولتنا خيوط حبنا وسابذرها في الهواء لتكون ذرات حياتي هذه بمثابة حرس عظيم ! ثم احرسكم جميعا فيما بعد من اعالي السماء

(ثم يعود اليه شيبوب)

شيبوب ـ يالك من مسكين ! يجب ان تلحق بها في أقرب وقت . هيا بنا فاتنى تام العدة والسلاح ، وهذه آخر واقعة اخوض غمارها ويلزمني ان أستعد لها كالفوارس البواسل وأتلقى الطعنات الى ان أقع مضرجا بالدماء

شيبوب ! ياأخي وزميلي في الحروب انتعانق دون ضعف أو اسف لايجدى ولا ينفع ، وعيون جامدة لاتعرف أن تدمع

(ثم يطيع شيبوب اشارة عنترة وهو يكظم زفراته ويذهب)

سأموت الآن بغير شهود ونعم ما فعلت . انني استطيع الآن ان اعبر عن آلامي ويتسنى لعيني أن تبكيا دون ان تسيل عبرات الآخرين . لقد خارت قواى ولكني ضاعفت قواكم ولن يرى احد منكم ضعفي وآلامي . (ثم يخترق شعاع من الشمس المشرقة سحب الضباب المربد وينير وجه عنترة)

والشمس لاتفترق عنا اذ تولد ثم يراها الناس وهي تموت . ايتها الشمس اذهبي الى ذويّ وانضمي الى موكبهم وقولي لهم باني احميهم في الحياة وفي الممات! الوداع ياامالي الحب والمستقبل الزاهر اواه ! انني اشعر ان البرد يغير على شيئاً فشيئاً وقد اضطربت عيناى . ماذا دهاني ! هل هذه وطأتك ايها الموت امهلا مهلا ! فاني انا الذى اهاجمك واشد عليك دون وجل . لأمتط الجواد والرمح في يدى كما كنت من قبل وساجبرك ان تخضع لامري وسيقود ذراعي سيرك الاعمى الاحمق

(ثم يعلو جواده وهو في الرمق الاخير) والآن تفتح روحي جناحيك فطر وحلق! يخيل الي اني انام نوما هادئا وأرى سربا من الطير آتيا من المشرق ! . . . يقترب منى ويحيط بي ثم يذهب ويعود . ولكنه حياتي باجمعها التي تضمني كأكفان نسجتها الايام التى عشتها ايام الامل والحب والحرب ، ان الماضي يعرض امامي وارى اول الكفن ! اي ايام الطفوله ! ان خيوطك لمن خز وعسجد وانت وحدك اللامعة الزاهية انا ننسج بايدينا أكفاننا ، وهذا كفني يطويه الموت باصابعه وهو يدفنني في طيات حياتي! ... لاتتحرك ياعنترة ... يجب ان يراك العدو حينما يقبل مستعدا للكفاح..

(ثم يسلم النفس الاخير ويميل برأسه ويبقى جسمه منتصباً معتدلا مستندا ذات اليمين الى رمحه وذات اليسار الى الصخور القائمة وفي هذه الآونة ياتي الرجال

شاهرين رماحهم وسيوفهم وعلى رأسهم عمارة بن زياد فيلمح على حين غفلة عنترة وقد اضاء وجهه شعاع الشمس المشرقة فلمع سلاحه وهو راكب جواده)

عمارة ـ آه ! انه لحي لم يمت

الباقون (وهم يولون الادبار مذعورين) حي

ينزل الستار

الغادة ذات الكاميليا

تحليل ونقد

الكسندر دوما الصغير — علاقته بماري دوبليسي — فضله ومكانته في التأليف التمثيلي — الغادة ذات الكاميليا — لاترافياتا — ترجمتها الى العربية — تمثيلها بمسرح رمسيس — يوسف بك وهبي والسيدة روزاليوسف وعزيز افندي عيد

ولدهذا الكاتب الشهير بباريس سنة ١٨٢٤ وتوفى سنة ١٨٩٥ وكان ابنا دعيا للروائي الشهير دوما الكبير . وكان جده الجنرال دوما هجينا دعيا أيضاً اذ حملت به أمه وهي احدى زنجيات جزيرة هايتي من المركيز لابايتري بلا عقد بمدينة جيريمي بهايتي وهي احدى جزر الانتيل . وما أردت سرد هذه الاسرار الا لابين نفحاتها على المؤلف وتأثيرها العظيم في رواية الغادة ذات الكاميليا ودفاعه عن النساء الساقطات لان هذه المسألة هي (قضيته الشخصية)

يعد المترجم له من اقدر الكتاب في الروايات القصصية والتمثيلية في القرن التاسع عشر ومن مزاياه ان يهيمن احترامه على الجمهور في المسرح ويواجهه بصدماته ويسيطر عليه ويخضعه. تمثيله ذو نشاط وعمل وسرعة حماسية وروح جذابة في التعبير . لغته تنم عن القوة والثبات . ومحادثاته المسرحية ملأى بالحماسة وتبهر بنكاتها الادبية.

ولع دوما بالنظام والظرف واشتهر بطلاوة اسلوبه في المحادثة والقصص كما انه

كان من المولعين بالفنون الجميلة وكان رقيق الشعور يتألم من الرذائل والمساوى ويحاربها بعزيمة ماضية لا تعرف الملل . وقد اعطي لغته شكلا اجتماعيا واخلاقيا عظيما : وكان غرضه الذي يرمي اليه تعضيد المجتمع الانساني باصلاح الاسرة التى يجب ان تؤسس على الحب لا على المال . وحيما كان يحارب الاوهام الفاسدة يشتبك مع الجمهور في حرب عوان ولكنه لمهارته وجرأته وشدة عارضته وقوة احكامه المنطقية وما وهب من الاستعداد اصبح واثقا من الانتصار عليه والظفر به حتى أصبح من أنبغ الروائيين في القرن التاسع عشر

(ماري دوبليسي)

كانت تعرف أيضاً باسم الغادة ذات الكاميليا لانها كانت مفتونة بازهار الكاميليا وتزين بها صدرها وآنيتها واشتهرت بجمالها وعيشة البذخ والترف وقد ولدت بمدينة (فوان) بمقاطعة (ارون) سنة ١٨٢٤ وماتت بالسل بباريس سنة١٨٤٧ وهي فى ربيعها الثالث والعشرين وقد هام بها دوما الصغير واتخذها صاحبته وخلد ذكرها بروايته القصصية والتمثيلية

الروايتان القصصية والتمثيلية

للغادة ذات الكاميليا

كتب المؤلف روايته القصصية سنة ١٨٤٨ ولا حاجة لذكر الموضوع فقد سبقني كثيرون وذكروه في تقاريرهم بل اكتفى الآن بتحليلها

يتساءل الناس لم حازت هذه الرواية هذا القبول والنجاح وأبكت السامعين مع انها ليست باعظم ما كتب المؤلف ؟ فنجيب بان هذه الرواية هي تاريخ حقيقي للمؤلف مع صاحبته ماري دوبليسى ودفاع مجيد عن قضيته الشخصية وعن حبيبته. فهي تفتن بسرعة ارتباط الحوادث ببعضها وانشائه السهل الممتع الذى لايشوبه تكلف وعواطفه المتأججة

وقد انتقد البعض المؤلف ولاموه على تعضيد نظرية فاسدة ضارة بالنظام الاجتماعي وهي تجديد شرف الساقطات بحب الشريف من الرجال ولكنه ليس

بأول كاتب اتبع هذه النظرية وقد سبقه كثيرون من زمن مديد . ولم يعد دوما هذه النظرية بشكلها القديم ولكنه أتانا بشكل حديث مؤثر حتى استطاع أن يبكي العيون الجامدة وما وسع الناس بعدئذ إلا أن يهنئوه ويفخروا به

ثم استخرج روائينا من تلك الرواية رواية تمثيلية مثلت لاول مرة بمسرح الفودفيل في ٢ فبراير سنة ١٨٥٢ وقد أحدثت انقلاباً عظيماً في فن التمثيل ولم تك هذه الرواية جديدة بالنسبة لموضوعها أو فكرتها أو لان الكاتب اختار موضوعاً تجديداً في مذهب (الروماتسم وهو استرداد اعتبار البغي وأعاد (ماريون دولورم) بل لانه أتي بشكل جديد وأظهر على المسرح مناظر وملابس الحياة الحاضرة وأسس كوميديا الاخلاق الحديثة التى تشمل أخلاق العصر الحاضر فى دائرتها وشكلها الحقيقي ولكذلك اقتفى أثره أغلب كتاب الروايات التمثيلية الذين انضموا فى سلك مذهب (الرياليسم أي مذهب الحقائق

كل هذه الظروف والاعتبارات التى شملت هذه الرواية جعلتها أكثر تداولا من جميع روايات المؤلف ولو لم تكن أهمها لان روايته الاخيرة (فرنسيون) التى مثلت لاول مرة سنة ١٨٩٧ تعد صفوة مؤلفاته التمثيلية وقد مثلها الممثل الشهير الوبارجي) بالاوبرا الملكية من خمسة عشر سنة تقريباً

وكانت بعض روايات (دوما) يشوبها شيء طفيف من العيوب لتقليده الروائي الفرنسي (سكريب) والخشونة فى بعض المواضيع والتكلف والاحكام المنطقية التى تبعد من المعقول أحياناً . ولكن هذه الشوائب تبررت بظهور (فرنسيون) ودلت على نفحات جديدة أتت من فج عميق واسعدت كاتبنا بهذا الرقى الباهر

— لاترافياتا —

استخرج فردى من رواية الغادة ذات الكاملياالاوبيرا المسماة (لاترافياتا) وهي من أحقر مؤلفاته وقد سقطت سقوطاً أبدياً من أول يوم مثلت فيه في (البندقية) وقد قطعت جهيزة قول كل خطيب اذ اعترف فردى نفسه بسقوطها ونكتفي بسرد خطاب له كتبه في ٩ مارس سنة ١٨٥٣

عزيزي لوكاردى

« لم أكتب اليك بعد التمثيل الاول (للاترافياتا) وانى أكتب اليك الآن بعد التمثيل الثاني ولقد كانت النتيجة سقوطاً بل سقوطا تاماً ولا أدري على من يقع الخطا ؟ وافضل الامور السكوت كما أني لاأريد أن أقول شيئاً عن الموسيقى ولا أتكلم عمن ساعدوني فردى

(ترجمة الرواية)

ليت شعرى هل يجد الانسان ما سردناه من المزايا النادرة من تلك البلاغة الساحرة والتحاليل البسيكولوجية والاخلاقية والفكاهات الرقيقة والروح اللطيفة والابحاث الاجتماعية والعواطف الملتهبة والفن التمثيلى الذى يهيمن على السامعين بتأثيره ونظامه في الترجمة العربية ؟

كلا ثم كلا اذ لم يقدر المترجم شيئاً من تلك المزايا بل أبرز لنا شكلا لايزيد عن الهيكل العظمى للرواية بعبارة ركيكة .

(تمثيل الرواية بمسرح رمسيس)

أول شيء لفت نظرى حينما فتحت برنامج الحفلة هذه الجملة « تفتتح الحفلة بمارش رمسيس تأليف وتلحين يوسف بك وهبي » فقلت هذا فضل جديد كنت أجهله وانتظرت على جمر الغضا توقيعه ولكن سمعنا لحناً غريباً ضئيلا مريضا واستغرب منه صديقي أيضا الذي كان بجانبي وهو من المولعين بالموسيقي والتمثيل وله ذوق عظيم فيهما .

رفع الستار في الليلة الاولى في الساعة التاسعة والنصف وانتهي التمثيل فى الساعة الثانية صباحا وهذا حالنا دواما نحن معشر المصريين لانظام لنا ولاترتيب

رأيت المناظر والملابس جميلة ولكن ينقصها كثير من الذوق السليم لا سيما ملابس النساء وترتيب شعورهن اذ كان يسود عليهن الشكل (البلدي) ونسين أنهن يمثلن نساء باريسيات ! . .

ان ما رأيته في تمثيل هـذا الجوق لا يمتاز بشيء محسـوس عن الاجواق الاخرى التي تفككت أو الباقية الا بالملابس والمناظر ومن العيوب السائدة فيه عدم حفظ الادوار والاستعانة بالملقن كما ان الاشارات والحركات رديئة خصوصاً عند السيدات وكانت السيدة فاطمه رشدى ذات حركات (بلدية) وقد لفتت الانظار بالضحك وقتما كانت تشرح كيف خسر زوجها المحامي قضيته وحكم على الذي دافع عنه بالاشغال الشاقة اذ كانت تحرك كتفيها ويديها وتضرب على كفيها وكان على مقربة مني أحد الشبان الراقين من المشتركين فى الاوبرا الملكية فقال : « اظن ان القضية كانت أمام محكمة الازبكية » فاغرق الحضور فى الضحك لهـذه النكته الظريفة التي تناسب المقام .

أهم أدوار الرواية ثلاثة وهي : دور أرمان ليوسف بك وهبي ومرجريت لروزاليوسف ووالد أرمان لعزيز افندي عيد . دخلت المسرح وكلي آمال واشتياق ولكن ما لبثت ان خابت كل الظنون وشككت في انه درس دراسة تامة ونال بعدها دبلوما . رأيت فيه جمودا في الجسم . القاؤه يكاد يكون على وتيرة واحدة خال من العواطف حتى ان تمثيله وسحنته لا يدلان على شيء منها وربما كان أليق قليلا في نوع آخر كالحزن أو الكلاسيك أو غيره وهذا مالا استطيع الحكم به قبل مشاهدته .

واذا قارنا بينه وبين عبد الرحمن افندى رشدي وجدنا الاخير أميز بمراحل ولو أنه لم يتلق التمثيل على أحد بل درسه من كثرة مشاهدة الاجواق الاجنبية المشهورة التى كانت تؤم البلاد . كانت روز اليوسف أمهر من باقي الممثلين في عدم التكلف في حركاتها وأشاراتها وقد أبكت كثيراً من الحاضرين واغرورقت عينى ولو انى لم أعجب بتمثيل الرواية بعد ماشاهدتهـا من كثير من مشاهير نجوم الكوميدي فرنسيز ممن زاروا مصر .

والذى ينقص الان هذه الممثلة نشاط الحركات وقوة الصوت وسرعة الالقاء وقد سمتها منذ اثنتي عشرة سنة في نادى الالعاب الرياضية هي وعزيز افندي عيد

تمثيل (ياست ما تمشيش كده عريانه) وكانت وقتئذ نشيطة في الحركات رشيقتها رنانة الصوت . أما عزيز افندي عيد فلا يليق الالنوع المضحك وكان دوره في والد أرمان رديئا جداً بعيداً عن مهابة الآباء وحنوهم ورزانتهم بصوت خشن أبح وحركات مضحكة وقد ترحمت على أبي العدل افندي وقلت حبذا لو كان حيا ومثل لنا هذا الدور الذي لا يحسنه غيره.

وأملنا أن يعطي وهبي بك لهذه الملاحظات عناية تامة ويحسن اختيار الروايات وتعريبها .

الابحاث الموسيقية

الموسيقى فى مصر

لاريب أن الموسيقى من أعظم الفنون الجميلة التي أصبحت من الضروريات عند كل الطبقات ، وقد بلغت أوجها عند الامم الراقية ، ونمشت مع التمدن حتى أصبحت معيار المدنية والرقي

الموسيقى الراقية كالشعر بل هى متممة له ، لان كثيراً من الحالات النفسية العميقة لا يستطيع الكلام أن يعبر عنها ، واني أضرب لك مثلا سهلا .

اذا قرأت أمام أمي جاهل مرثية من أروع الشعر الجاهلي فهل يظهر عليه أي تأثر؟ أعد الكرة أمام الرجل نفسه واسمعه مرثية موسيقية راقية فلا ريب انها تهزه وتحزنه حتى تقرأ علامات الحزن على وجهه ولربما لا يقوى على ضبط نفسه فيتأوه أو يخونه الدمع ان كان رقيق الشعور .

إن لم تكن الموسيقى واصفة ومصورة لكل ماتقع عليه العين من محاسن الطبيعة ومعبرة كالشعر عن اسمى العواطف وأرق الشعور والوجدان أولى بها أن تسمى اغطا وجلبة تصدع الرؤوس وتسئم النفوس .

لقد اهتمت مصر بالعلوم والآداب والفنون وأحرزت نصيباً يقارب

الضروريات ، ولكنها متقهقرة في الموسيقي . ولم نر واحدا من ابناء الاغنياء أولع بهذا الفن وحاول أن يدرسه دراسة تامة تؤهله لخدمة الموسيقي والنهوض بها الى أوج الكمال . ولا يتأتي بلوغ هذه الغاية الا بدراسة الموسيقى الافرنجية ، ثم العربية مع نصيب كاف من الثقافة العامة ولا سيما الآداب وتاريخ الفنون الجميلة ، لانهما يثقفان الذوق ويشحذان الخيال ويرهفان العواطف

اننا بدراسة الموسيقى الافرنجية نفروعها من سولفيج وأرموني وكونتربوان وتوزيع الموسيقى على الآلات نتمكن من اتقان الاملاء الموسيقى بان نكتب موسيقى الدور أو القطعة بمجرد سماعها ، ونرقى في التلحين اذا نبغنا في الارموني واستطعنا أن نسترشد بها لوضع أرموني تتناسب مع موسيقانا العربية . أما الكونتربوان فانها تتمشى مع موسيقانا ولا تتنافر معها ولا تحدث فيها أية شائبة

ان موسيقانا لا تتعدى على الجملة : الضروب والمقامات ، وهي لا تؤهل الانسان للتلحين مالم يكن الموسيقار قد وهب استعدادا طبيعياً وموهبة فنية وذوقا سليما كالشيخ سلامه حجازي وعبده الحمولي ومحمد عثمان ، وبهم استرشد ومنهم اقتبس جميع ملحنينا المصريين

المشتغلون بالموسيقى في مصر هم المحترفون والهواة وصبية رياض الاطفال وصبيات السنتين الاولى والثانية من مدارس البنات الابتدائية والجيش والبوليس والملاجيء وسنتكلم عن كل طائفة منهم

ان المحترفين من عازفين ومغنين ومنشدين وملحنين يقنعون بالوصول الى درجة متوسطة أو دونها وليس عند اغلبهم ميل الى الفن ، والغاية التي ينشدونها هي كسب العيش بدرجة يغبطون عليها من القناعة

والهواة من الشبان يكتفون بحفظ بعض البشارف والسماعيات وجانب من المارشات والادوار دون أن يهتموا بقواعد الفن واصوله

واما الفتيات فأغلبهن يتعلمن منهاج المرحومة ماتيلده على البيانو ويقلقن به الجيران الى مابعد منتصف الليل ، ولا يعزفن نوتة واحدة

ويستثنى منهم أفراد قلائل من الشبان والفتيات بلغن غاية عظيمة ويقولون دائما هل من مزيد ؟ ولكن لا يتجاوز عددهم أصابع اليد

اغتبطنا حين رأينا مدة انعقاد المؤتمر الموسيقي أطفال رياض الاطفال ومدارس البنات الابتدائية يمثلون قطعا استعراضية تمثيلية غنائية في غاية من الروا، والاتقان ويمثلون ادوارهم برشاقة واسترسال ويغنون الحانها غناء صحيحاً شجيا، وقد اعجب بهم اعضاء المؤتمر ايما إعجاب .ويسرنا أن نرى وزارة المعارف مهتمه بتنفيذ قرارات المؤتمر الذي اوصى بنشر التعليم الموسيقي في المدارس الابتدائية والتجهيزية . اذ قررت الوزارة في هذا العام تعليم بنات السنة الثانية من المدارس الابتدائية

اما موسيقى الجيش والبوليس والملاجىء فقد ترقت كثيرا في السنوات العشر الاخيرة ولاسيما موسيقى البوليس فأنها تعزف كثيرا من القطع الافرنجية ومنتخبات الاوبرات المشهورة فضلا عن القطع العربية الراقية . كما أنهم أهتموا بتوحيد طراز آلاتهم حتى يكون فيها انسجام . وهم يعزفون عليها بلباقة وحسن تعبير ورفة لم تكن موجودة فيما مضي

وإني أورد مثالين يظهران شدة الاهتمام بالموسيقي والتضحية العظيمة في سبيلها

كلنا نعرف هكتور برليوز أعظم موسيقى أنجبته فرنسا . وكان في أول أمره طالبا في مدرسة الطب ، وكان أبوه طبيباً فلم يجد الولد في نفسه ميلا الى الطب ورجا والده أن يدخله في معهد الموسيقى فرفض وهدده بقطع مرتبه ، ولم يستطع الابن أن يستمر في الطب فدخل الكونسرفاتوار . فما كان من والده إلا أن قطع مرتبه . فاضطر أن يعطي دروساً موسيقية بفرنك واحد للدرس ، واستمر في دراسته وهو يغالب الزمن للحصول على قوته حتى نبغ ، وهو الذي ابتدع الرومانتيسم في الموسيقى في فرنسا . والمثال الثاني يبين لنا اهتمام الهمج بالموسيقى بدرجة لا تجدها في المصريين

كنت في صغرى أقضي عطلة المدارس في قريتنا بين أهلي ، وكان منزلنا في ربوة عالية تشرف على جميع القرية ، وكان في الحي الذي يلينا بيت تسكنه فئة من

العبيد يحيون الليل جميعه في الغناء والعزف والرقص الى أن تطلع الشمس ، ثم يذهبون الى عملهم وهو التجوال في القري لجمع (البجم) من أشجار الاثل بقصبه طويلة بطرفها شص كبير وهو يستعمل في الصباغة

كنت في الصغر طلعة أحب الوقوف على كل شيء ، وكنت أرقب هذا البيت الصادح الباغم من الاصيل بانظار ، فكنت أرى النساء يكنسن فناء الدار ثم يرشونه ويفرشون الحصر ويصفون الآلات الموسيقية من دلوكات وطبول مختلفة الانواع والكسيلوفون الفطرى المصنوع من قطع الخشب الرنانة المختلفة الاحجام والكيزان الصفيح المحشوة بالحصي الصغير يحملونها فى أيديهم ويهزونها لتحدث (دوكة) مخصوصة وقت التوقيع . وحينما يقبل رجالهن بعد الغروب يهيئن لهم ثريد العدس . ثم نصف أقداح البوظة ، ثم يدخنون ويتسامرون ساعة الى ان ياتي وقت الموسيقي فينشطون لها ويأخذ كل منهم آلته الموسيقيه ويتهيأ الباقون للرقص والغناء ويستمرون في لهوهم الى مطلع الشمس دون ان يناموا ، ثم يذهبون الى عملهم ويقنعون بان يقيلوا ساعتين بعد الغداء فى ظل شجرة

ان الموسيقى الشرقيه كنز زاخر بالجواهر واللآلىء واليواقيت ولكننا لانعرف كيف نستخرجها ونبريها بذوق سليم حتى تليق لان تزين بها تيجان الملوك

ان للموسيقى العربيه مائة نغمه (مقام) أو كثر من مائة وزن (الضروب) ولكن أين النابغة المثقف الذى يحسن التأليف والتلحين

ان بعض الملحنين ينزعون فى تلحينهم الى اختطاف ألحانهم من الالحان القديمة ثم يخلطونها بشيء من الموسيقى الافرنجية المنحطة التى نسمعها فى افقر المقاهي الافرنجية ويظنون لسذاجتهم انهم جددوا الفن ونهضوا به ، وما دروا انهم شوهوه وفضحوه وهذا جرم كبير لا يغتفر ، عيرنا به كثير من المستشرقين

كانت الموسيقى المسرحية قد خطت أول خطوة في سبيل النجاح . ولكن القائمين بامرها لم يحسنوا ادارتها . وكان ينقصهم الحزم والتدبير والذوق الفني فلذلك فشل المشروع في عامه الثاني واستمرت الموسيقى المسرحية في التمثيل الهزلي

والحمد لله قد نشطت هذه المسارح وسارت فى سبيل الرقي لولا مايصادفها من عقبة لم تذال وهي ندورة المطربين والمطربات الحائزين للاصوات الجميلة القوية الرنانة والثقافة الموسيقية الصحيحة

اننا معشر المصريون مقصرون في تجميل بيوتنا وانعاشها بالفنون الجميلة حتى نسكن اليها بعد عناء العمل ونجد فيها من وسائل السرور والانس ماينسينا آلامنا وينعشنا ويجدد قوانا

نجد الاسر الافرنجيه تهتم بتعليم أبنائها الموسيقى وتعنى ربة الدار بنظام الحديقة وتنسيقها حتي تصبح جنة مصغرة ترتاح اليها النفوس المتعبة وفى المساء تجتمع الاسرة فتحيي حفلات موسيقية ترقص لها القلوب وتنسى فيها الهموم والآلام

اما بيوتنا التى تجردت من جميع مظاهر الجمال والانس حتى نفرت منها النفوس ولم يطق الابناء أن يطيلوا المكث فيها فينصرفون الى المفاسد من تجوالهم ومعاشرة ذوي الاخلاق الضعيفة فلا يلبثون ان تتسرب اليهم عدوى الرذائل ويصبحون في عداد الحشرات المؤذية

ان الموسيقى لغة القلوب ومهذبة الاخلاق ومرققة الطباع ومبددة الهموم والاشجان وخير لنا ان نهتم بها فى اوقات فراغنا ونسعى في رقيها حتى نعيد عصر زرياب واسحق الموصلي

بيتهوفن

للفليسوف العظيم والكاتب الكبير ايبوليت تين

« يلزمك ياولهلم أن توقع لى الآن السونات التي من مقام السول مينور ، ألا تعرف المؤلف ؟ . »

ان الموسيقى لها هذا التأثير الفتان لانها لا توقظ فينا أشكالا مثل المناظر الطبيعية وسحن الناس والوقائع والمواقف الممتازة ، بل تثير حالات النفس كأنواع الفرح

بيتهوفن

والكآبة ودرجات الانقباض والانتعاش ومنتهى البشاشة أو البث القاتل الذى تضمحل أمامه القوي ، تطرد جميع الفكر فلا يبقي الا أعماق النفس والقوة التى لا نهاية لها وهي اللذة والالم وهياج وهدوء الخلقية العصبية الحساسة والاختلافات والانسجامات التى لا تحصي في اضطرابها وسكونها . كما لو نزع من بلاد أهلها وطمست معالمها ومحى حرثها فلم يبق الا الثرى وأغواره وأطواده وصرير الرياح وخرير الانهار والشعر الابدى المتباين للنهار والليل.

« لم أكن مصغياً لك ومسايراً لاني كنت أفكر ، فارجو منك أن تعيد القطعة الثانية التي من المقام الكبير (الماجور) »

فأعاد هذه القطعة الثانية وهى مشجية مؤثرة فكان الغناء ذو الاصوات الرائقة البلورية تزحف فوق الاصوات المؤتلفة فيختفي ثم يظهر وينشر التفافه المتموج ، كجدول ينساب وسط المروج فيخيل اليك في بعض الاحيان انه أنين الناى ، وفي الغالب تكون كصوت رخيم شجي لعاشقة حزينة ، وتارة ينقطع هذا اللطف وتلك الرقة وتظهر ثانية النفس الهائجة وتثب أنغامها ثم تهوي كماء يتحدر بين الجنادل أو كهواء نفس رقيقة أو كاصوات رنانة لها انسجام غريب ، ثم تسقط كل هذه الاصوات وتختفي ثم تصعد جموع من أصوات صغيرة خفيفة الحركة ثم تهبط وتتابع كانها ارتجاف أو اضطراب أو خرير ماء شجي .

ولتقود اللحن الى مجراه الاول كانت الانغام ترجع الى سيرها الموزون وكانت لجبها الرائقة تجري للمرة الاخيرة وهي اكثر تعرجا واعظم مما رؤيت في موكب من اصوات رنانة فضية، اضرب دائما من بيتهوفن ياولهلم ولكن اطل في هذه المرة واضرب كل ما يخطر ببالك فاستمر اكثر من ساعة ولم انظر ساعة الحائط وكنت في هذا اليوم مفتونا بالسماع ومكبا عليه اكثر منه

وقد ضرب في بادىء الامر اثنتين او ثلاثا من السوناتات باكملها ثم اعقبها بقطع من السانفوني والسوناتات المخصصة للبيانو والكمنجة ولحن من فيدليو وقطعا أخرى لا اعرف اسماءها

وكان يصل هذه القطع المتفاوتة ببعض أصوات متوافقة منسجمة وبعض سكتات كقارىء فتح ديوان شاعره المحبوب فتارة يقرأ في وسطه وطوراً يقرأ في آخره فينتخب أحياناً فقرة ثم يبحث عن غيرها حسب تأثره الوقتى

لبثت مصغياً لا اتحرك وما فتئت عيناي تحدقان بالمدفأ فتنبعث حركات هذه النفس العظيمة التى انطفأت كما ينفرس الانسان في سحنة حية ليقرأ ما ارتسم عليها من العواطف . انها لم تخمد الا في ذاتها ولكنها ما زالت أمامنا حية خالدة في بطون هذه الاوراق المسطورة . ان الشهرة العامة تكون فى مكانها ظالمة جائرة ! ولقد عرف بانه أمير الموسيقى فى العظمة الهائلة والآلام المبرحة . وقد حددت هنالك

مملكته ولم يمنح من الملك غير أرض مقفرة اكتنفتها الاعاصير الهوج فاصبحت يبابا فخمة تماثل الارض التى عاش فيها (دنت) . انه يملكها ولا يستطيع موسيقى غيره أن يلجها ، وقد استوطن غيرها .

ان اجمل وانضر رياض الخلاء وقد انبتت من كل زوج بهيج واعطر الوديان الباسمة ذات الظلال الوارفة والازاهير الرشيقة الفيحاء وأرق نسمات السحر العليلة الخجلة ، كل اولئك ملكه وفي حوزته . ولكنه لايدخل فيها نفسا وديعة هادئة لان الفرح كالالم يهزه كالريشة في مهب الريح

ان احساسه اللذيذ عنيف وما هو بسعيد بل مذهول، ومثله كمثل رجل قضى ليله حليف الهموم والاشجان فأصبح يلهث من الالم وظل يخشى ان يفاجئه نهار اسواء من ليله ، لمح فجأة منظرا طبيعيا جميلا عليل النسيم مخضلا بالندى فارتجفت يداه وتنهد تنهد من تخلص من كروبه واعتدلت جميع قواه بعد انحنائها ورزوحها، واندفاع سعادته لايذلل كوثبات يأسه، تتهافت نفسه على كل لذة. سعادته مؤلمة وما هي بهنيئة ان قطعة التى كتبها من سرعة (الليجرو) تقفز كالامهار الطلقة فتعبث بالمروج الزاهرة وتهشم ما تصادفه وقت جماحها . وأشد وأعنف منها قطعه التى من سرعة (برستو) ولها جنون لذيذ ووقفات فجائية مختلجة وقطع تماثل سرعتها خبب الجياد ولكنها غير منتظمة ويطرق (فوجها) الرنان على ملامس البيانو . وبينما تراه وسط فرحه الاحمق اذ سطا الجد الفاجع فلم يغير سيره ويهجم عقله الى الامام بنفس العنف كأنه يخوض غمار المعمعة ، وهو تمل دائما بعنيف سرعته ولكن بوثبات غريبة وخيال خصيب حتى ان المشاهد ليقف مذعوراً من عنفوان هذه الحياة الوحشية وكثرة هباته وحركاته الفجائية وجماح تنويعاته غير المنتظرة التى تنقطع وتتضاعف بشكل لايبلغه التصور ولا يخطر على البال ، وكل ذلك يعبر عن تلك الحياة دون أن يستنفدها . . .

«ثم قال لي ولهلم : «الآن اعزني اصغاءك » ثم ضرب القطعة النهائية من السونات الاخيرة .

انها لجملة تتركب من سطر واحد بطيئة تعبر عن حزن لاحد له تتردد بدون انقطاع كتأوه طويل ويسمع تحتها أصوات مختنقة متسلسلة وكل لهجة تمتد على مايتبعها ثم تخفت وتغيب كمثل صيحة انتهت بتأوه بحيث ان كل شعور جديد بالالم كان يحفه موكب من الشكاوي القديمة وكان يميز وسط أنين الشكوى المرة الصدى الخافت للآلام الاولى . ولست تري في هذه الشكوى غضاضة أو غيظاً أو هياجا. ان القلب الذى أصدرها لم يعترف بأنه بائس تعس ولكنه اقتنع بان السعادة مستحيلة وانه ليجد الدعة والسكينة في هذا الاستسلام والخضوع كمنكود سقط من عل فتهشم فطفق ينظر الى الجواهر المتلالئة في السماء والتي رصعت بها قبة ليلته الاخيرة فينفصل عن نفسه وينسى واجبه ولا يفكر مطلقا في اصلاح ما استحال اصلاحه ويسكب صفاء الاشياء الالهي في نفسه لطفاً خفياً ويفتح ذراعيه اللتين لا تستطيعان ان تنهضا جسمه المتحطم ويمدهما صوب الجمال الخالد الذي يلمح خلال هذا العالم المحفوف بالاسرار .

نضبت عبرات الالم دون ان يشعر لتمهد ذرف دموع نشوة النفس وقت تجردها وبالحري ليندمجا في قلق مزج بالملذات

وفى بعض الاثناء ينفجر يأسه فلايلبث ان يفيض الشعر وتنتشر الالحان الحزينه الفاجعة وهي ملفوفة باصوات متوافقة فخمة لايدركها الوصف ثم يطفو العظيم منها ويغطيها جميعها بانسجام مؤثر

وفي النهار بعد جلبة عظيمة ومعركه عنيفه يبقي العظيم وحده وتتحول الشكوى الى نشيد لتمجيد الخالق يدور بصوت رنان وهو محمول وسط انغام ظافرة .وتسمع حول الغناء فى الاصوات الغليظة والحادة من البيانو جموعا كثيرة من الاصوات السريعة المشتبكة المنتشرة انسياب نشيد الاستحسان وهو ينمو وينتفخ ويضاعف بدون انقطاع وثباته وفرحه . ان ملامس البيانو ليست بكافيه اذ لا يوجد صوت لم يشترك فى هذا الاحتفال . فالغليظة برعودها ، والحادة بتغريدها ، قد تجمعت كلها في صوت واحد. انها واحدة ومتعددة كالوردة الرائعة التي رآها (دانتي) وكانت

كل وريقة من تويجها روحاً سعيدة .

ولقد كنى غناء مركب من عشرين صوتاً لتأدية تأثرات متباينة (تركنا هنا جملة لم نستحسنها اذ كلها تشبيهات بأقسام الكنيسة واصطلاحاتها الدينية التي لا نجد لها تعريباً وهي في ذاتها لهذا السبب عديمة الاهمية)

الرغائب والاماني قوة لاتغلب ولا تقهر ! ولقدحاولوا اخضاعها بلا طائل وما فتئت منابعها جارية . ولقد تكدست على المنبع جهود ثلاثين عاماً من أعمال وحساب وتجارب فظن انه جف ونضب ، وما لبث أن مسته نفس عظيمة حتى تفجرت ينابيعه وكانت أشد من أيامها الاولى فتحطمت الجسور . ولما طغى الماء اكتسح التيار المواد الثقيله التي سد بها المنبع فزادته قوة فوق قوة . ومن غريب المصادفات انني رأيت ثانية في هذه الآونة مناظر الهند الطبيعية وهي وحدها ، بما أوتيته من العنف والتضاد ، حرية بأن تعد الصور لمثل هذه الموسيقى .

وحينما تهب الرياح الموسمية وتتكاثف السحب المربدة فتكون سورا هائلا كسواد القدر يغير على الزرقاء والدأماء ، وفي هذه الاكداس الفحمية تطير أسراب من النوارس لايدركها الحصر وترى ذاك السواد المرعب وقد شابته هذه الاجنحة البيضاء يزخف على الغبراء ويلتهم الفضاء ويغرق رؤوس الارض في البحر ته

البحرت وقتئذ السفن وفى آخر يوم جميل رأيت على بعد جزائر (ملاديف) وهي اثناعشر الف جزيرة صغيرة من المرجان في بحر من الماس وجميعها تقريباً مقفرة ، نام الماء في خلجانها الصغيرة فزان رصفها بهداب من لجين .

وتري الشمس ترشقها بوابل سهام من نار وبمنعرج قنواتها ينساب ذوب النضار فيفجر اللجج المائلة وكأن البساط العظيم السائل وقد تشقق من اضطراب الامواج معدن مطروق مطعم بالاشكال العربية ، وقدلمع البرق فوق ظهر اليم بآلاف من وميضها لا يدركها العد كما تتألق الجواهر على الدروع المرصعة ، فكأنها كنز لاحد ملوك الهند من اسلحة وحلي وخناجر مقابضها من الصدف وملابس مرصعة بالصفير وخوزات

محلاة بالزمرد واحزمة مزينة بالفيروز واستبرق لازوردي موشى بخيوط الذهب ومرصع باللآلىء.

بماذا تقارن هذه السماء البيضاء الناصعة ؟ هل رأيت غادة تختال في برد شبابها وصحتها وهي تنتفض من رجة الملذات وقد تحلت بأفخر مظاهر الزينة ليلة زفافها وانشبت مشطها العسجدي فى شعرها وازدان جيدها بعقود اللالىء وتدلى من اذنيها قرطان من ياقوت ، وحينما يضيء لألاء هذه الجواهر ورد بشرتها الحي يعلق فى اغلب الاحيان على جبينها نقابا أبيض خفاقا ، غير أن وجهها يملؤه بنوره ، وترى ثوبها الرقيق الابيض الذي يخيل اليك انها تختبيء فيه وقد صار لها فخرا زائفا

وهذا مثل ذلكم البحر وقد اظلته تلك السماء بضوئها الوهاج الذي ينساب كالماء بعد تباين الوان السحب الرصاصية حتى أصبح شائقا فخما كاللحن الديني الشجي الفتان للرجل العظيم بعد ما جالد اليأس في ظلامه الحالك . ان ذاك اليم يهيج نفوسنا كما يوقظه فينا ذاك الرجل العظيم ، وسواء أكان في حضرة هذا أو ذاك ينقطع اسماع ونظر الاشياء المنفردة أو الكائنات المحدودة أو شطر من اعمال الحياة . ان موسيقاه لهي النشيد العام للاحياء الذى يشعر فيه بالتنعم أو الشكوى بل انها النفس العظيمة وما نحن الا فكرها ، انها الطبيعة با كملها قد جرحتها الضرورات فشوهتها او سحقتها ولكنها مافتئت مختلجة وسط جنازتها وهي بين جموع الموتى الذين لايدركهم العدو قدغطوها ، ترفع كفيها صوب السماء وقد امتلأتا بالسلالات الجديدة وهي تصرخ صراخا غير رنان ولا مفهوم دائم الاختناق تسببه على الدوام رغبة لايطفأ أوارها .

نظرت الى ولهلم وكنا تقريباً في نفس تلك الحالة وتقدمنا الى بعضنا . استغفر الله فاننا لم نضع وجهينا المجعدين صوب بعضهما ولكننا قد تنبأنا بفكرتنا بعضنا في عيني بعض ثم ابتسمنا ، وكفانا في هذه السن أن نتصافح ...

احتفال مصر بمرور خمسين عاماً

على وفاة فاجنر

في نفس الساعة التاسعة من مساء ٢٩ يناير سنة ١٩٣٤ التي كان الالمان يحتفلون فيها باوبيرا برلين بمرور خمسين عاماً على وفاة فاجنر أكبر نابغة فى الموسيقى في القرن التاسع عشر ، كانت مصر تشارك في هذا الاحتفال في المعهد الملكي للموسيقى العربية والفضل في ذلك يرجع الى الاستاذ ستافرينو صاحب مجلة الاسبوع المصرى التي تصدر بالفرنسية والشاعر المجيد خيري نجل المرحوم خيرى بك الامين الاول للمرحوم السلطان حسين كامل .

وقد جمعت هذه الحفلة من عظماء المصريين والاجانب وكثير من الادباء والصحفيين وقد بهر الشاعر المجيد خيري الحضور بمحاضرته القيمة التي القاها بلغة فرنسية فصيحة أمام جهاز الراديو الذى تجشم المهندسان اللذان قاما بتركيبه كثيراً من المتاعب حتى حصلا على أعظم نتيجة اذ استخدما محطة المعادى اللاسلكية وسلطا عليها سلك التلفون ثم وصلا هذا السلك بالراديو وبعد القاء المحاضرة قال صاحب السعادة حسن نشأت باشا كلمة في الاحتفال باوبيرا برلين باللغة العربية حيافيها جلالة مولانا الملك وحمل الى المصريين تحية هتلر وتمنياته . ولقد سمعت في مصر بفضل هذه الجهود بصوت جهوري رنان ثم أعقبه الاحتفال فوقع أوركستر الاوبيرا القطع الآتية

الفاتحة الموسيقية لاوبيرا تانهوزر

« « « لوهنجرين

سيجفريد ايديل

الفاتحة الموسيقية لاوبيرا أساتذة الغناء

كان التوقيع غاية في الاتقان والصفاء ولم يشبه أدنى جلبة بفضل هذه الجهود الجبارة حتى كادت تميد طرباً جدران المكان

لم أتمكن من الجلوس في الصفوف الاولى لشدة الزحام فلذلك لم أستطع أن

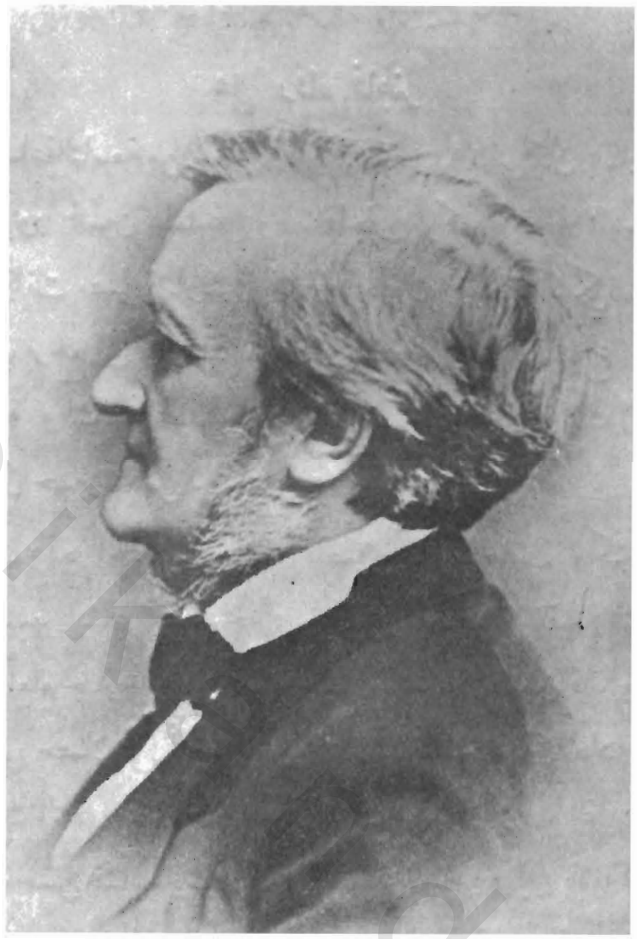

فاجنر

أسمع كل الاقوال بجلاء، وعللت النفس بمطالعتها حينما تنشر لاستعيد تلك اللذة العظيمة ولاعلن لامتنا المحبوبة أن في الكنانة رجالا يشرفوننا في مثل هذه المواقف

ان مجلة الاسبوع المصرى تظهر كل خمسة عشر يوماً ولقد نشرت المحاضرة فى أربعة أعداد ظهر الاخير منها في ١٥ ابريل سنة ١٩٣٤ وهذا مادعا الى تأخير الرد لغاية الآن

ولا أنسى ليالى رمضان الشجية التي شنف فيها أسماعنا منذ ست سنين الدكتور منصور فهمي والاستاذ محمود فؤاد مرابط مدرس تاريخ الفنون بمدرسة الفنون الجميلة

العليا اذ تكلم أولهما عن الفيلسوف نيتشه وتكلم ثانيهما عن الرابطة التي كانت تجمع في أول الامر بينه وبين فاجنر وعطف على الكلام عن حياة هذا النابغة وتأثيره وعن الرسالة التي قام بتأديتها خير قيام وقد أسمعنا أثناء محاضراته هذه على البيانو القطع الشهيرة الآتية :

نشيد الحجاج من أوبيرا تانهوزر

أنشودة النجم « « «

لحن مسير الخطبة « لوهنجرين

دخول الالهة في الوالهال من أوبيرا ذهب الرين

الفتيات الازهاد من اوبيرا پرسيفال .

جزء من فاتحة پرسيفال الموسيقية

ان افئدتنا لتبتهج حينما ترى شبابنا الناهض ملقيا بدلوه في الدلاء ليستقي من فنون الغرب مايستنير به فى ترقية موسيقاه دون أن يعبث بطابعها الشرقي . سرد لنا المحاضر حياة فاجنر واعماله وما صادفه من عقبات وبؤس ومناوأة نقاد جهلاء أو حساد أصمهم الغرض وأعماهم الهوى . وكان الذوق الفني والثقافة الموسيقية لم يتحررا بعد من أسر الموسيقى القديمة فلذلك لم يرق لهم فى أول الامر فن فاجنر الجديد ولم يستطيعوا أن يفهموا أسراره ومذهبه الفخم . وكان يتخلل المحاضرة من النكات والفكاهات ماأبعد الملل عن الحضور وجعلهم ينصتون الى المحاضر كان على رؤوسهم الطير لهذه السيرة المفعمة بالمجد والفخار . ثم سرد مؤلفاته ونوه بالصحف الشهيرة منها التى سارت بذكرها الركبان

عرفت المحاضر منذ نعومة أظفاره اذ كان مفتونا بفاجنر ويوقع منتخبات من مؤلفاته بتعبير عظيم وعواطف متأججه وتصوير خلاب وكان يعالج الشعر الفرنسى في هذا الوقت ويجمعه في كراسات مخطوطة فكان يسمعنا منه قطعا شائقة . وهذا سر نجاحه لانه تكلم عن نابغة فتن به منذ صغره .

وما أردت بهذه الكلمة الا أن أنوه بفضل شاعرنا الفضال وجهده العظيم

وان أضيف كلمة متواضعة عن فاجنر في النواحي التي لم يطرقها المحاضر وله العذر لان المحاضرة بلغت نحو الاربعين صحيفة تقريباً ولا يتأتى ان يلم المحاضر بجميع اطراف الموضوع في محاضرة واحدة

اجتمعت في فاجنر مواهب جمة قل ان توجد كلها في نابغة غيره كان كاتبا قديراً وشاعرا مجيدا وموسيقيا مبدعا وفيلسوفا عظيما ومبتكرا ومجددا بمعنى الكلمة. ولقد سرح فكره في تاريخ الفن واستعراض الاطوار التي مرت عليه فوجد ان التراجيدي اليونانية القديمة التي نشأت من اشتراك جميع الفنون والتعاون الفرح اللامة التي ما اجتمعت واتحدت الا لتبدع الجمال أو تعجب به . وقد اتحد الشعر مع الموسيقى لأيجاد الدرام اليوناني واجتمع الرقص والاشارات التمثيلية والنحت ليحققه على المسرح باوزان شجية وجماعات ساد عليها الجمال . ثم ائتلفت الهندسة مع التصوير ليحدثا الاطار اللائق لان تدور فيه المشاهد والحوادث وهيت الامة بعضهم بمثابة ممثلين والآخرون مشاهدون

كانت الوحدة الاولية في العصر اليوناني لم تتفكك بعد اذ كان الانسان قريبا من الطبيعة يشاهدها بعين الفنان ويخضع لاول وهلة لقانون الحاجة الذى يتكلم فى نفسه بصوت الغريزة .

ولما كرت الحقب وتعاقبت السنون تهشمت تلك الوحدة وأخلت البصيرة والغريزة مكانهما للتفكير فاصبح يحلل بدلا من المشاهدة وبهذه الصفة تجزأت الوحدة في الطبيعة الى اجزاء عدة منعزلة عن بعضها وانحل التعاون الاخوي الذى ساد بين الفنون .

شعرت الانسانية شيئاً فشيئاً بالداء الذى تئن منه فابتدأ الميل الى الجمع Synthèse من جديد وهب الفنان الاخصائي من اعماق عزلته وفتح ذراعيه للفنون المجاورة — احتاجت الموسيقى الى الرقص ليمدها بالايقاع (الوزن) والى الشعر ليملي عليها الالحان والى القول ليعطي المعاني المحدودة لامانيها

ولقد حاولت الموسيقى من عدة قرون أن تكتفي بنفسها وتستغني عن غيرها

من الفنون قانعة بايقاع وألحان مستعارة أو مقلدة فلم تفلح ، الى أن ظهر اكبر نوابغ الموسيقيين في العالم بيتهوفن فانه تنبأ ببصيرته الوقادة عن المثل الاعلى في الموسيقى وكانت السانفونى التاسعة قد اضطرته الى الاستعانة بالشعر ليكون متمما لها وليسمح له بالخروج من المنطقة المبهمة للاضطراب الخالص وليعلن بدقة عن مطامحه ورغباته فوصل بذلك ما انقطع من الروابط التي تربط الفنون الثلاثة ببعضها والفضل يرجع اليه في تخليص الموسيقى من عزلتها وكانت السانفونى التاسعة خطوة ثابتة قاطعة نحو الفن الجمعي L'art Synthétique

رأى فاجنر أن ينهض بالدرام الموسيقي الى أوج الكمال فوضع نظرياته العديدة وابتكاراته العظيمة حتى اصبح فنه كالمغناطيس يجذب اغلب الموسيقيين اليه طوعا أو كرها، وكان أساس نظامه الوحدة الفنية بين الفنون اللازمة للمسرح اذ يجب أن يكون الموضوع ونظم الدرام والتلحين لشخص واحد حتى تسود وحدة التفكير في المتن والموسيقى

كان فاجنر ينتخب الموضوع بنفسه وينظم شعره ويلحنه، ويتلخص مذهبه في أن تكون الموسيقى واصفة لكل ماتقع عليه العين معبرة لكل ما يجيش في النفوس ويختلج في الافئدة من مختلف العواطف والميول .

ولقد ابتكر فنا جديداً لتوزيع الموسيقى على الآلات لا يجاريه فيه مجار وامتازت موسيقاه باتصالها وارتباطها كالحلقة المفرغة حتى لا يتسنى لاحد أن ينتخب منها قطعا متفرقة لانها غير قابلة للتجزئة

ومن اهم ابتداعه اللحن المسير Leitmotiv وهو عبارة عن لحن صغير يرمز به لمعنى من المعانى ويتكرر بالمناسبات وهو قوي التعبير مظهر للمعاني الخفية

كان فاجنر قوي الارادة ماضي العزيمة سيء الحظ بائسا قلب له الدهر ظهر المجن فلم تثبط صروف الزمن همته أو تفل له عزما بل استمر في تأدية رسالته وهو واثق من نفسه

لم يفهمه قومه ولا الباريسيون أنفسهم وسقطت تانهوزر وقابلوها بالصفير ونكات

الشوارع وحينما ابتدىء بتمثيلها في باريس وكان أغلب الجماهير جاهلا محافظا على التقاليد العتيقة فلم يسغ فن فاجنر الجديد والبعض الراقي من الموسيقيين نهش الحسد صدورهم واشفقوا من هذا المنافس الجديد والبعض اعماهم التصعب الذميم . كان الباريسيون تشجيهم موسيقى ميير بير المزوقة الجوفاء الخالية من العواطف والتعبير وقد قال فاجنر: «ان مقطعا موسيقيا واحداً من برليوز لافضل من جميع الابيرات التي كتبها ميير بير»

تألب بعض النقاد على فاجنر مثل برليوز وفيتيس وشومان وغيرهم ولم يكن الخصام بين برليوز وبين فاجنر إلا بسبب سوء الفهم ثم تصالحا وتحابا .

وتفصيل الخبر انه عرض على فاجنر في يناير سنه ١٨٥٥ أن يقود الاوركستر Philarmanic Society ويعطي ثمانية كونسيرات فقبل على سبيل التطلع الى حركة الموسيقى في تلك البلاد، وصادف وجود برليوز في نفس هذا الوقت وكان يقود اوركستر « New Philarmonic » فتقابلا وزال بينهما سوء الفهم واصبحا صديقين حميمين يعجب كل منهما بالآخر واستمرت المراسلات بينهما بعد سفر فاجنر الى سويسرا . ولكن من اعجب العجب أن فيتيس رئيس كونسرفتوار بروكسل والذي تربى في كونسرفاتوار باريس وكان مدرسا فيه حمل حملة عنيفة على المترجم له ومع انه لم يشتهر الا باختصاصه بالتدريس وحفظ القواعد ولم يوهب شيئا من النفحات والابتداع يؤهله لان يكتب شيئاً يعيش ويخلد ، وقد ألف عدة اوبيرات سقطت كلها من اول ليلة في تمثيلها كما انه حاول ان ينال جائزة روما الاولى من الدرجة الاولى فلم يفلح ولم ينل غير الثانية من الدرجة الثانية ثم دخل الامتحان في العام التالي فلم يأخذ غير نفس هذه الدرجة الحقيرة

وقد انتقد هذا السخيف برليوز قبل فاجنر وكان يحمل عليه حملات عنيفة متتابعة في الجرائد ولكنها كانت تقابل بالازدراء والسخرية . ومن سخافات هذا الرجل أنه قال في قاموسه « تراجم الموسيقيين » عن جان سيباستيان باخ بانه أعظم الموسيقيين الالمان على الاطلاق وهذا مايدل على تفضيله باخ على بيتهوفن وفاجنر وهذا منتهى السخافة والغباوة

ومن نكد الدهر ان فاجنر العظيم عاش زمنا طويلا يكابد صنوف البؤس وكان ساعده الايمن وقت الشدائد ليزت وهو من اشد المعجبين به وصديقه الحميم ولما عطف عليه لويس الثاني ملك بافاريا وفتن بفنه العظيم قربه اليه واخذ يساعده في نشر مؤلفاته وتحسين معيشته ولكنه لم يلبث بعد سنة وبضعة شهور أن تألب الجمهور على فاجنر ورموا الملك بالانصياع اليه والخضوع لارادته السياسية فلم يرَ بداً من ابعاده عن القصر فذهب الى سويسرا ومكث فيها ست سنين كانت من اسعد أوقاته وأن اضفناها الى الاثنى عشر عاما التي قضاها خارج بلاده حينما صدر الامر بالقبض عليه لاشتراكه في الثورة لبلغت ثمانية عشر عاما

ان رسائل فاجنر وقد ترجمت الى الفرنسية تعد من أعظم المستندات والمراجع التي تدرس منها حياته وفضلا عن ذلك فان له فيها أفكاراً عظيمة في الفن وملاحظات دقيقة .

لم ينتقد فاجنر إلا في تطويله في بعض المواقف اذ تراه مثلا يخصص فصلا باكمله لبث بشكوى الغرام بين المحب وحبيبته ونفوره من الرقص في التمثيل لانه كان يقول لا أحب أن أكتب رقصا لا ويبرانى حتى يلهو النظارة بسيقان الراقصات الجميلة ولا ينصتون الى موسيقاي

نأخذ على المحاضر ان جعل سيزار فرنك في مستوى واحد مع فاجنر وهذا شيء فيه غلو كبير لم يقله غيره من المؤرخين والنقاد . لانكر أن فرنك نبغ في الموسيقى الدينية وله في القطع القليلة التي كتبها نفحات عظيمة فمن العبث اذن أن نوازنه بمن قلب الموسيقى رأساً على عقب وابتدع المذهب الفخم ونهض بالموسيقى الى أرفع شأو

ولقد رفع دوبوسي الى مصاف الآلهة وانى أسرد كلمة عن هذا الموسيقى ربما أقنعت محاضرنا المحبوب

كان دبوسى من أنجب تلامذة المعهد الموسيقي وقد تخلص من بعض تأثير استاذه (ماسنيه) وأوجد له مكانة خاصة . كان يميل هذا الموسيقي الى (كوبران) و (رامو) و (موزار) ويتضايق من (جلوك) ولا يطيق أن يسمع (فاجنر) وكما ان

لهذا الموسيقى فئة تعجب به وتجله فان له نقاداً كثيرين وساخطين عديدين وأظن أن حكمه على جلوك وفاجنر كاف للدلالة على ذوقه ومبلغ علمه وشدة غروره

تنحصر مؤلفات دوبوسى في القطع الصغيرة ولم يلحن الا أوبيرا واحدة وهي (بيلياس وميليزاند) واني أسرد للقراء نقد (ارتور بوجان) لهذه الاوبيرا وهو كاتب عظيم وأكبر نقاد موسيقى في هذا العصر وقد توفي منذ بضع سنين وله مؤلفات عديدة يرجع اليها في تاريخ الموسيقي ونقدها وهو الذى ينتدب لتحرير القسم الموسيقي لملحقات المعاجم ودوائر المعارف مثل قاموس لاروس (ثمانية مجلدات) وقاموس الاوبيرات ومعجم فيبس الموسيقي وغيرها . وقد مثلت هذه الاوبيرا لاول مرة بمسرح الاوبيرا كوميك بباريس فى ٣٠ ابريل سنة ١٩٠٢ وهي مستنبطة من رواية الكاتب الشهير مترلنك

ان كلود دوبوسي وهو من الحائزين لجائزة رومة ١٨٨٤ يعد من الموسيقيين الذين لاتفهم موسيقاهم ، وقد اعتبرته فئة من زملائه الذين هم على شاكلته رئيس مذهب جديد وقد وضع الحان هذه الاوبرا كما يشاء ويهوي حسبما يفهم الموسيقى التمثيلية ولسوء حظه قد فاته الوقت وهو متأخر ككثير من زملائه الشبان ولقد ظنوا جميعاً أنهم سبقوا زمنهم وما شعروا أن الزمن يسير ويتقدم وهم متأخرون منقطعون

ولقد سئم الجمهور سماع موسيقاهم وما هي من الموسيقى بشيء وملت آذانهم هذا الالقاء الثقيل المستمر على نمط واحد ووتيرة واحدة ، وهي مجردة من الهواء والضوء ولا يجد فيها السامع قطعة من الغناء الحقيقي. ويلاحظ السامع ان الوزن والغناء ولون الانغام وهي دعائم الموسيقى قد جهلها دوبوسي واحتقرها بمحض ارادته

ان موسيقي هذا العالم مبهمة غامضة لالون لها ولا حد واهية القوى يتعمد واضعها الهرب من الوضوح والدقة والتصوير الموسيقى والوزن حتى ان الآلات الموسيقية تستمر في موسيقاها على وتيرة واحدة دون صفة أو خبرة بانغام لاتنفك ترددها الآلات الهوائية مثل الكور، والكلارينت والباسون دون أن يسمع بينها الصوت

الرخيم الرنان للسكان بنغمة ضعيفة مخدرة للحواس وخلاصة القول ان موسيقاه منومة كثيرة الخطأ والزلل »

مسرح فاجنر وضريحه

انما الفائدة نسرد كلمة موجزة عن هذا المسرح الذي بناه فاجنر في مدينة بيروت خصيصا لتمثيل مؤلفاته وهو يسع ١٥٠٠ مشاهد وخال من النقوش والزخرفة لئلا تلهي الحاضرين والاوركستر غير منظور وقد افتتح في ١٣ اغسطس سنة ١٨١٦ حيث مثلت فيه حلقة نيبيلونج وهو يبعد عن مدينة بيروت بعشرين دقيقة ومنظره الخارجي خال من الجمال الفني

يقام في هذا المسرح احتفال فخم كل ثلاث سنين تمثل فيه مؤلفات فاجنر ويشترك في تمثيلها وغنائها اشهر مشاهير الفنيين في المانيا ويهرع اليه الناس من كل فج عميق حتى من امريكا ويلزم ان تقدم طلبات المقاعد والمساكن الى لجنة تنظيم الاحتفال قبل الموسم بمدة طويله حتى يضمن المشاهد له محلا ومسكنا يأوي اليه مدة الموسم . ومحظور على المشاهدين التصفيق أو التكلم أو الاستحسان لا بالاشارة ولا بالقول وتوجد فيلا فاجنر في حديقة عظيمة في نهاية الشارع المسمى باسمه وهي مبنية على طراز روماني وبأعلا باب الدخول صورة رمزية تمثل روتان مع غرابيه تحيط به التراجيدي والموسيقى وبجانبهما سيجفريد الشاب وقد كتب تحت هذه الصورة هنا وجد خيالي الراحة والسكينة ويلزمني أن اسمي هذا البيت (راحة الخيال)

وفى هذه الحديقة وفي النقطة التى اختارها لرقدته الاخيرة على مقربة من الذين تفانوا في حبه واخلصوا له ولم يعيشوا الا ليمجدوا ويخلدوا اعماله العظيمة

ولقد اوصي فاجنر ان لا يقيموا له ضريحا فخما على لحده ولا يكتبوا عليه شيئاً وهو فى هجعته الاخيرة راقد تحت حجر بسيط ولقد دفن على مقربة منه كلبه الحارس الامين (روس)

ان الآلاف الذين يحجون الي بيروت ليذهبون لزيارة قبره ويقفون خاشعين

صامتين أمام المجد والفخار والجلال الذي يحف هذا الضريح ثم ينصرفون بكل احترام وخشوع وقلوبهم تفيض باجل الذكرى والاحترام

متفرقات

فن الالقاء

فن الالقاء فن جليل عني به الغربيون واهمله الشرقيون جهلا بجزيل فائدته ولو علموا انه يمنح القول تأثيرا عظيما ويأسر النفوس ويتملك القلوب ويفعل مالا يفعله السحر فيثير العواطف الهاجعة ويهيج العزائم الخامدة ويلين القلوب الجامدة لما طرحوه وراء ظهورهم واهملوه في زوايا النسيان . كم من محام جمع في دفاعه بين بليغ القول ودافع الحجج ومفحم البراهين ولكن خانه الالقاء فخذر حواس القضاة بالقائه ذي النغمة الواحدة حتى خسر دعواه

وكم من ممثل اسأم الحضور بالقائه وجلب اليهم النعاس وارفضوا قبل انتهاء التمثيل. نسمع اغلب خطباء الساجد يلقون خطب فقيد الوعظ والارشاد والالقاء وهي كما علمنا ارقى وابلغ ما سمعناه فوق المنابر ولكننا نرى نصف المصلين نياما والباقين يتثاءبون مع ان الفقيد كان يبكي العامة قبل الخاصة بما أوتي من حسن الالقاء وفصاحة اللسان وبلاغة الانشاء . وقصارى القول اننا لا يتسني لنا ان نجيد الالقاء دون الشروط الآتية :

١ — حسن النطق ولا سبيل اليه الا بدراسة علم تجويد القرآن اذ به تعرف مخارج الاصوات ومقادير الحروف والمد والقصر والادغام والاظهار الشفوي والاحوال التي ترقق او تفخم فيها الحروف وغير ذلك . ولا بد من الاستعانة بقاري، ماهر من قراء القرآن الذين اتقنوا دراسة التجويد

٢ — اتقان اللغة العربية حتى يفهم القاريء ما يلقيه ويتأثر من المعاني ليشرك معه شعوره وعواطفه وقت الالقاء.